اعـلام العـرب

(١٢٤)

الدكتور نجيب محفوظ

رائد أطباء النساء والولادة

د . محمد محمد الجوادى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٦

الاخراج الفنى

راجية حسين

اهــــداء

الى اخى الدكتور ســامح خميس هــلال
عرفانا بفضــله ، وتقـديرا لخلقــه ، واعتزازا بشخصــه
الكريم .



مقدمة المؤلف

هـذا كتاب عن الدكتور نجيب محفوظ باشـا أول أطباء النساء والولادة فى بلادنا ، يواصـل به المؤلف سلسلة من كتبه عن أصحاب الفضل فى التقدم الهادىء الذى أصاب هـذا الوطن والتى انتظمت من قبل كتبـا لاقت التقـدير والاقبـال عن الدكتور محمـد كامـل حسـين والدكتور على مصطفى مشرفة والدكتور أحمد زكى والمشـير أحمد اسماعيل والدكتور على ابراهيم والدكتور سليمان عزمى والشهيد عبد المنعم رياض .

ومن نافلة القول أن كتابة هـذه الكتب لم تكن بالمهمة اليسيرة ، ولا بالمهمة المكررة فكل من هؤلاء متفرد فى كثير مما اتسمت به حياته .. على أن الصعوبة كانت تختلف من كتاب لآخر . وفى كتاب نجيب محفوظ تمثلت الصعوبة فى كم هائل من التقاريظ والتكريمات عن الرجل على حين ندرت الكتابات عن مراحل وصوله الى العظمـة فى كل جانب من جوانبها .

ومن أصعب الأمور على الكاتب الدارس ان يجد نفسه فى مثل هذا المناخ الذى يتيح له مونولوجا من الحديث من دون أن يتحداه ديالوجا بين الوجوه المختلفة للعملة الواحدة .. بل قد يكون هذا هو اصعب ما واجهته فى كل ما كتبت .. هل تعرف الصعوبة التى يلاقيها الذين يمشون على الحبل المشدود حتى يصلوا بسلام .. فلا تسمع عنهم الا الخير . هكذا كان محفوظ باشا الذى لم يكن له – على الأقل فيما بقى لنا الى اليوم – ذلك الصراع الشديد فى خضم الحياة بما فيه من عداوات ومبالغات فى الحب والانتقاد وانما كان من الذين « لا يعاديهم أحد » .. وهو شىء جميل حقيقة ولكنه ليس موطن العظمة على اى حال ، وخصوصا فى نجيب محفوظ .

كان على المؤلف اذن أن يكون كيشوتيا أو ديكارتيا حين يعالج الكتابة عن رجل من هذا الطراز ، فاما أن يختلق له معارك ويخوض به فيها ، واما أن يتشكك فى كل ما ترك نجيب محفوظ ليصل الى تقدير آثاره حق قدرها .

ولم يكن هذا ولا ذاك فى وسع المؤلف طيلة السنوات الست (١٩٨٠ – ١٩٨٦) التى امتدت طوالها كتابته لهذا الكتاب مع انه قد يكون من المستحيل أن يصدق احد ان كتابة هذا الكتاب الصغير التى لم تنته الا فى ١٩٨٦ بدات عام ١٩٨٠ !

هذا الكتاب اذن ليس نتاج حالة نفسية واحدة ولا متقاربة ، وانما فيه صورة من طالب طب يدرس مقرر النساء والولادة حين كان فى السنة الرابعة على اساتذته الكبار من تلاميذ مدرسة نجيب محفوظ .. ثم يدرس

مقررات غيرها حتى ينال الباكالوريوس ، ويمارس العمـــل طبيبا تحت التدريب (امتياز) ثم طبيبا مقيما (نائبا) لفرع آخر غير الذى كان نجيب محفوظ رائده .. وفى الكتاب أيضـــا صـــور من هذا الشاب يستقبل الدنيا العملية ، ثم بعد أن استقبلها بالفعل .. وفيه صورة من هـــذا الشاب يصيبه تقدم الشباب بشىء من الحرص على الشباب نفسه فيما يكتب وفيما يفكر ، وفيه بعد ذلك كله صـــورة واضحة لآراء نمت ، أو كان من المفروض أن تنمو ، ولمعلومات فى ذات الموضوع تكاملت أو حتى تراكمت .

ليس هذا باعتذار عن روح متناسق قد يفتقدها هذا الكتاب ، فقد لا يزعم المؤلف أنه يفخر فى هـــذا الكتـــاب بشىء أكثر مما يفخر بهذا الروح المتناسق .

***

كان نجيب محفوظ عالمـــا عصاميا علم نفسه فى وطنه وخرج من التجربة بأعظم ما تكون الخبرة والعلم معا ، وأتيح له طول فى العمر مكنه من انجاز كثير من العمل العلمى الجـــاد الذى رفع من قدره داخل حدود وطنه وخارجها .

ومع هذا فان نجيب محفوظ يعد بلا شك أبرز دلالة على عظمة الحضـــارة الاسلامية التى مكنته ــ كما مكنت أسلافا له فى القرون الخوالى ــ من أن يلعب لها هـــذا الدور الرائد والبارز والخالد فى آن واحد .

كان نجيب محفوظ قبطيا من نسيج المجتمع المصرى ، كانت صلته التاريخية والحقيقية بهذا المجتمع أعمق كثيرا جدا من صلة كثير من أفراد طبقات وفدت على هذا المجتمع

بحكم ظروف الدولة العثمانية فى أواخر عهدها ، ولم ينفصل محفوظ أبدا عن هـذا المجتمع حتى بعد ما صارت له مكانته الدولية ، وتهيأ له من رغد العيش ما يمكنه من حياة يومية أوربية الروح وان كانت مصرية المكان ، ولعل الأعظم من هـذا أن محفوظ باشا لم ينفصل عن المقومات الحقيقيـة للحضـارة التى كان هو واحدا من اعلامهـا (ومن ثمارها ايضا) .. والدلائل على هـذا كثيرة لعل أبرزها هو ذلك التراث العلمى الرفيع الذى تركه نجيب محفوظ فى لغـة عربية رفيعة المستوى فى كل ما أمكنه أن يكتب فيه من فروع تخصصـه .. وكان فى وسـع محفوظ أن ينصرف فى مؤلفاته الى (الرطانة) بالانجليزية فحسب ، ولكنه كان فى الواقع يدرك حقيقة دور العالم الوطنى الرائد لأنه كان ذلك الرجل فعلا .

***

ولعل من هـذه الدلالات ايضـا ان نجيب محفوظ استطاع ان يقنع هذا المجتمع المصرى المحافظ المتدين بطبعه وطبيعته وطباعه بدور محدد للمرأة فى النظـام الطبى بدءا بقصر التمريض عليها وامتدادا الى تثقيف الدايات والمولدات والقابلات ، والى مشاركة فعالة (لأسرته) فى الخدمـات الاجتماعية البناءة .. ولم يكن محفوظ وهو يؤدى دوره فى هذه الناحية بالسياسى يكثر من التصريحات ، ولكنه كان ذلك السياسى الآخر الذى يغير فى صمت متخذا من العقول التى اقنعها ، والقلوب التى أحبته ، والفكر الذى ميزه به الله أدواته الى التغيير الهادىء المستقر الذى لايمكن الانقـلاب عليه بعد ذلك .

لم يؤسس نجيب محفوظ مدرسة من الاطباء فحسب ، ولكنه أسس مدرسة أخرى موازية من المولدات والممرضات، ولم يؤد دوره فى الخدمة الطبية فى كلية الطب فحسب ولكنه تعداها الى خارجها فى كثير من المستشفيات الخاصة ، ولم يمارس فنه فى أسرة المستشفيات فحسب ولكنه خرج به الى وحـدات صحية موازية للمستشفيات ترفع عنهـا العبء .

***

صاغ نجيب محفوظ خبرتـه الاكلينيكيـة الطويلة فى اطلس كبير هو الى اليوم مفخرة له ولجامعته ولوطنـه ، وعرضـها فى متحف كبير هو الى اليوم ايضـا مفخرة له ولجامعتـه ولوطنه ولتخصصه أيضـا ، وترك من التراث العلمى آثارا تستحق التقدير لما فيها من جهد وصدق .. لا أبعد عن نفسى وقلمى ذلك الدافع الملح الذى يدفعها الى أن تطلع الناس على تعبير محفوظ فى تسمية الأجنة ناقصة النمو « بالمتلهوجة » .

***

كان نجيب محفوظ علما فى زمن كانت بلاده تجاهد بين علمين ، علمها وعلم امبراطورية لا تغيب عنها الشمس ، واستطاع نجيب محفوظ أن يكون نموذجا للرجل الذى أفاد واستفاد من الانجليز فى احترام متبادل ، كان بجهده يضـع هؤلاء بحيث لايمكن لهم الا ان يقدموه على انفسهم فى ديارهم ، ولم يكن هـذا بالانجاز الهين ، ولكنه كان بالطبع جهد طراز ليس من الصعب على طائفة كثيرة من المصريين أن يكونوه .

كان محفوظ باشا واحدا من هؤلاء بالطبع ، وواحدا من أبرزهم بلاشك ، وكان معه أعلام آخرون بادلوه وبادلهم التعاون والاحترام حتى وان لم يلتقوا ابدا وجها لوجه — وصاغوا جميعا بتعاون لم يكن له ميثاق مكتوب تجربة لمصر الحديثة فى وضع أقدامها على طريق التقدم والارتباط بالعلم بعد ثوراته المتتالية والارتباط بالعالم من خلال العلوم والعلماء .

وجاء جيل تال آثر أن يرتبط بالعالم وحركات التحرر فيه ، وان يرتبط من خلال هذا بالعلم فى هذه الدنيا .

ثم أشرقت علينا شمس — لا تغيب الا لتشرق — فاذا نحن بين الأمرين ، لا ندرى هل نبدأ بالعلم ثم ننفتح على الناس بما نعرف وهم يسبقوننا أم ننفتح على من يعرفون فتأتينا المعرفة وقد سلكت سبيل الاستطراق فى الأوانى !

وقد تكون المفاضلة بين هذين البديلين من أصعب الأمور وأعقد الرؤى ، ولكن الذى لا جدال فيه أن صياغة المأزق الذى نحن فيه اليوم على هذا النحو من التبسيط الشديد ليست تبسيطا بقدر ما هى تعبير عن وضوح الرؤية فى الفرق بين نور الشمس ونور القمر .. وهذا الكتاب ليس الا محاولة لتدريب العين — عين المؤلف قبل عين القارىء — على التمييز بين هذين النورين .

***

وهذا رجل ليس له من المقومات الأجنبية شىء على الاطلاق فى حياته كلها .. وقد خرج الى الوجود وكاد أن يدرج فى عداد من لا وجود لهم .. ولم تكن حياته فرصا بقدر ما كانت جهادا .. ولم يلق فى تعليمه العالى تعليما ممتازا

ولا شبه ممتاز ، ولا لقى بعده تدريبا مبرمجا ولا شبه مبرمج ، ولم يكن له استاذ بالمعنى المعروف ، ولم يكن له تخصص كآلاف التخصصات الموجودة اليوم .. ومع هذا بلغ ما بلغ ... ولم يكن فى هذا وبعد هذا وحيد عصره ولكنه كان كما اسلفنا واحدا من امثلة كثيرة لطراز ممتاز .

وهذا كتاب لا يفعل الا أن يروى كل ذلك فى تنظيم وصدق ، وأن يستعرض التجارب فى دقة وانصاف ، وأن يجرد الأمجاد من بهرجها ليظهر معدنها الذى هو انفع من مظهرها وأن يرتب ذلك كله على النحو الذى يليق بتاريخنا الحقيقى (أو الأحق) وهو التاريخ العلمى .

فاذا خرج القارىء بعد قراءة هذا الكتاب ببعض ما يساعده على الاختيار بين الانفتاح على العلم وبين الانفتاح على من عندهم بعض ثمار العلم فقد نجح المؤلف .. واذا لم يكن من نصيب المؤلف النجاح فى هذا فيكفيه ساعتئذ أن القارىء قد استمتع بقصة نجاح حقيقية .

***

يتناول الباب الأول من هذا الكتاب حياة نجيب محفوظ .. هل يعيد المؤلف عبارته التى تعبر عن منهجه فى كتابة مثل هذا الباب فيقول « كما أراد لها الله ان تكون » .. ولهذا فان هذا الباب يبتدىء من عام ١٨٨٢ وينتهى عند آخر تكريم رسمى حظى به نجيب محفوظ يوم منح الرئيس السادات اسمه (مع اسم على باشا ابراهيم) قلادة الجمهورية فى عيد الطب الأول (١٩٧٩) .

ولا يجد المؤلف حرجا فى أن يتضمن هذا الباب بعض

الفقرات التى تصـور بيئة ـ قد تباعدت بعض الشىء عاشها هذا العالم الجليل .

***

ويتناول الباب الثـانى شخصية نجيب محفوظ ، فيحاول المؤلف أن يستعرض كل ما أمكنه من نواحى العظمة فى هـذه الشخصية العصامية التى آمنت بالعمل ، وبقيمة العمل الهادىء ، مع أنه لم يكن بعيدا عن الأضـواء بعد الرهاب .. وآمنت بالبعد عن الغرور .. وكيف كان هـذا الرجل قدوة بالفعل .. ويتحدث هذا الباب عن ذلك السلام الداخلى الذى كان بين نجيب محفوظ وبين نفسه ، وبينه وبين الناس وكيف اكتملت شخصيته ، وكيف استقام فى حياته ، وكيف واظب على خطاه فى سبيل مجده ، وكيف احترم وقته ووقت الناس ، وكيف وفق بين ما يمليه عمله على وقته ، وما يؤمله هو من وقت للبحث العلمى .. وكيف كان حريصـا على صورته عند الناس ، وعلى صورته عند نفسه ، وكيف اتخذ لنفسه مثلا عملية من الروحانيات وكيف اعتز بأصوله وفروعه الى آخر تلك الطائفة من القيم الهامة التى سادت حياة عالمنا الكبير .

ويعرض الباب الثالث شخصية العالم فى نجيب محفوظ طبيب امراض النساء والولادة وكيف تنامت هذه الشخصية حتى لعبت دورها فى الريادة الحقيقية . ويضـم هـذا الباب بالطبع بعض آراء زملاء الرجل فى هذا الشأن .

***

ويتناول الباب الرابع قدرات نجيب محفوظ البيانية ، وهو صاحب تجربة هامة فى كتابة اثر ادبى عن حياته التى لم تكن حياة اديب ولا سياسى ولكنها كانت حياة مهنى ، وكيف أفلح فى هذه الحياة ! ، وفى رؤيته لتجربته فى هذه الحياة ! ويحاول الكتاب بالطبع أن يعرض برؤية مبسطة — لا ترقى كثيرا الى كل مقومات النقد العلمى — تحليلا لقدرات محفوظ البيانية التى كانت بلا شك تعبيرا عن شخصية علمية مكتملة .

***

وفى الباب الخامس حديث موجز عن آثار نجيب محفوظ العلمية ، وعن تقدير العالم لها .. ويتطرق هذا الباب الى بعض التفاصيل فى تاريخ هذه الانجازات التى كان محفوظ نفسه يقدم رجلا ويؤخر أخرى وهو يبذل جهده فيها ومن أجلها .

أما الباب السادس فهو الببليوجرافيا الكاملة لما كتب هذا الرجل وما كتب عنه .

دكتور محمد الجوادى

نائب طب القلب كلية

طب القاهرة والزقازيق

الباب الأول

حياة نجيب محفوظ

ولد الدكتور نجيب محفوظ يوم الخميس الخامس من يناير سنة اثنين وثمانين وثمانمئة وألف (١٨٨٢) فى مدينة المنصورة فى بيت مطل على النيل ، لوالدة فى الخامسة والأربعين من عمرها كان لها قبله سبعة أولاد ، وقد لبثت فى مخاضها ثلاثة أيام بلياليها •

ولادة ضعيف :

خرج نجيب محفوظ من بطن أمه مسترخيا كل الاسترخاء ، ويداه مبسوطتان لا نبض فيهما ، ولا تنفس له فى حالة تسمى « بالاسفكسيا البيضاء » فغلب على ظن الطبيب والمولدة أن المولود قد فقد الحياة ووضعاه فى اناء بجانب الشباك من دون أن يقطعوا حبله السرى والتفتوا الى العناية بالوالدة •

وبينما (ذلك الشيء الصغير) كذلك اذ جاءت خالته فلاحظت أنه يتنفس ولكن على ضعف ، فأسرت بما لاحظت الى المولدة التى أخذت تعمل على انعاشه بما أمكنها من الوسائل حتى دبت فيه روح الحياة • وان بقى أثر البرد والشتاء قاسيا على صحته بشكل ملحوظ طيلة الشهرين الأولين من حياته •

من مدرسة الى اخرى :

بـدأ نجيب محفوظ دراسـته فى مدرسـة الأمريـكان بالمنصـورة ، اذ كان زوج أخته المسيو تادرس هو ناظر هـذه المدرسة ، وكانت مدارس الأمريكان فى ذلك الوقت لا تعنى باعداد الطلبة لنيل الشهادات فحسب ، وانما تهدف الى تنمية الثقافة العامة فى نفوس طلابهـا ، وهو نسق لم يكن بالمعهود فى معاهد التعليم المصرية الموازية ، وقد اسهمت هـذه المدرسـة بلاشك فى خلق شخصـية نجيب محفوظ التى اسـتمرت حتى التسعين ! فقد كان للأدب وقراءته حظ وافر من برامج هـذه المدرسة ، وكذلك اللغات ، وبالاضافة الى ذلك كان « المرسلون » يعنون بالخلق القويم ، وباقناع التلاميذ بشتى الطرق بالاقلاع عن تصـديق الخرافات العجائزية من سحر وحسد وجن ، وقد صادفت دراسة الأمريكان هوى فى نفس نجيب محفوظ « الى أن سأله معلم الجغرافية ذات يوم عن عاصـمة بلوخستان فلم يجب فعنفه تعنيفا صارما لم يجد له صاحبنا مبررا فخرج بعده الى والده وأخبره بما حدث وطلب اليه أن يساعده على ترك المدرسـة التى لن تحقق له أمله فى الحصـول على الشـهادة الابتدائية التى تؤهله للالتحاق بالثانوى فمدرسـة الطب » ، فوافقه الأب على رأيه .

وانتقل « نجيب » الى المدرسـة الأميريـة الابتدائيـة

بالمنصـــورة (١٨٩٣) وهنـــاك ظهر تفوقه على أقرانه • وكان أستاذ اللغة العربية فى المدرسة علما من أعلام الأزهر • هو « الشيخ محمد المهدى » الذى صار فيما بعد أستاذا بمدرســة القضـــاء الشرعى دائم الاعجـــاب بمواهب نجيب محفوظ فى الانشاء •

وكان ناظر مدرسة المنصورة الابتدائية لذلك العهد هو المرحوم أحمد بك نجيب ، الذى خلف المرحوم « أمين أفندى سامى » وكان عسكريا فى نظامه ، فكان طابور الصباح تجربة قاسية لتلاميذه ، لأنه كان يشق الصفوف كأنه ضابط عظيم فاذا رأى حذاء غير لامع ، أو وقفة غير منتصبة ، لم يسلم صاحبها من لطمة أو ضربة بالمسطرة •

وفى نهاية سنة ١٨٩٥ سافر تلاميذ السنة الرابعـــة ليؤدوا امتحان الشهادة الابتدائية بالقاهرة ••• سافر « أبناء الذوات » منهم بالدرجـــة الثانيـــة وسافر الباقون فى الدرجـــة الثالثة ، فلما ظهرت النتيجة لم ينجح أحد من ركاب الدرجة الثانية !

وهكذا جمع نجيب محفوظ منذ بداية تعليمه العام بين مزايا نوعين منه ، ولو قدر له أن يمضى فى أحدهما من البداية الى النهاية لمـــا كان ـــ فى الغالب ـــ ليكون له ذلك المستقبل الباهر الذى حققه ، حين اتيح له أن يجمع الى رفعة العلم ، رفعة

فى الشخصية وتكوينها وسعة فى الأفق أسهمت فى تكوينها — هاتان الدراستان المتباينتان ، بكل ما فى كليهما من فضائل ومميزات ، وبتباينهما كذلك ، فلا مراء أن الفتى الذى يتاح له أن يقارن — بينه وبين نفسه — بين المتباينات قريبة الأثر من حياته يخرج الى الدنيا من بعد ذلك بأفق فيه من السعة قدر كبير .

عاش نجيب محفوظ طفولة لم تخل من المباهج ، وحين تحدث عن طفولته فى كتابه كان حريصا على أن يسجل « أنه كان يقرأ كثيرا ، فى مكتبة والده ، ومن الصحف والمجلات العلمية الدورية التى كانت مع زوج أخته المسيو تادرس » ، قرأ نجيب محفوظ من أعداد مجلة المقتطف ، تلك التى كانت فيها مقالات الأستاذ الكبير شبلى شميل ، وهى المقالات التى ترتبط فى أذهان مثقفينا بالتطور ، وداروين ، فقد كان شبلى شميل من أوائل المبشرين بها ، ولكن نجيب محفوظ يضيف الى هذه مقالات شميل عن اكتشاف كوخ لميكروب الدرن .. ويذكر نجيب محفوظ أنه « اختار دراسة الطب عن طريق القراءة » .

ويعتز عالمنا بأن يروى أنه قرأ فى مكتبة والده ما صدر من كتب المؤتمر الذى عقد فى الهند بين المسيحيين والمسلمين مثل « اظهار الحق » ، « الهداية » ، « سوسنة سليمان فى أصول العقائد والأديان » ، « معانى الصلاة » .. ولكن نجيب محفوظ

يذكر أن أكثر الكتب التى لايزال يدين لها بالحب مما قرأ فى صباه هى كتب الأدب العربى القديم •

أزمــة عاصــفة :

كان والد نجيب محفوظ من تجــار المنصــورة ، الذين يمارسون تجارة المحاصيل الزراعية وبصفة أساسية ، القطن ، وكانت المنصورة من عواصم التجــارة ذات الشأن ، وكان فيها كثير من الطليان واليونان ، اتصل بهم والد نجيب محفوظ ، وتدعمت صلته بهم ، ووثقوا به ، وعهدوا اليه بكثير من شــئون حساباتهم ومالياتهم ، فانهال عليه الكسب ، وعاش مع أسرته فى رغد من العيش ••• ولكن هــذا الوالد لم يلبث أن توفى ، وهو فى الثالثة والخمسين من عمره ، وكان نجيب لايزال صغيرا ، وكذلك أشقاؤه ، فأحيلت أمورهم وممتلكاتهم على أوصــياء ، يصفهم نجيب محفوظ بأنهم لم « يتمتعوا بحظ من الأمانــة يحول بينهم وبين أكل أموال اليتامى والتفريط » ، واســتولى هؤلاء على أموال الصغار ، ونعموا بها ، واضطر شقيقه الكبير الذى كان يكبر نجيب بخمس ســنوات الى قطع دراســته فى المدرسة الخديوية ليعمل فى وزارة الاشــغال بمرتب قدره ستة جنيهــات •

وما هى الا ثلاث سنوات حتى لحقت الوالدة بالوالد بعد ما أصابها مرض السكر ، وتبين لنجيب وأخواته « أن التركة مثقلة ، فباعوا العقارات ، وبعض الفدادين » •

فى شـــارع الفجـــالة :

وانتقل نجيب محفوظ ليعيش فى القاهرة ، مع شقيقه ، الموظف فى وزارة الاشغال ، فى شقة ، فى شارع « الفجالة » ، ولم تكن هــذه الحياة بالميسرة ولا الهانئة ، انما عــانى نجيب محفوظ من ضيق العيش ، وقسوة الحياة نوعا ما ، وأصــابه فيما أصابه التهاب رئوى .

والتحق نجيب محفوظ بالمدرسة التوفيقية الثانوية ، وهى حيث هى الآن من شبرا ، وكان طلبتها يومئذ من طبقة الأغنياء (الا صاحبنا) ، وأظهر نجيب محفوظ من التفوق فى دراسته ، والمثالية فى سلوكه ، والهدوء فى طباعه ، والرقى فى تعبيره ، والمواظبة على الأنشطة ما ظل محفورا فى ذاكرة زملائه جميعــا بعد ذلك بسنوات وسنوات ، ولم يكن حال أساتذته فى هــذا بأقل من حال زملائه .

بيئــة القــاهرة :

على أن من ألطف ما يمكن للمؤلف أن يقدمه لقرائه فى هذا الكتاب هو ذلك الوصف البديع والدقيق فى آن واحــد الذى كتبه المؤرخ الكبير الأستاذ أحمد عطية الله لبيئتى التعليم الثانوى ، والقاهرة التى عاشها نجيب محفوظ حين كان طالبــا فى المدرسة التوفيقية الثانوية ، قال الأستاذ عطية الله رحمة الله عليه : ــ التحق التلميذ « نجيب محفوظ » بالقسم الانجليزى

بالمدرسة التوفيقية بشبرا فى عام ١٨٩٥ ، وكانت شبرا فى ذلك العهد غير شبرا الحالية .

كان الذاهب الى ذلك الحى يحس بأنه ذاهب الى بعض بلاد الريف فاذا ما عبر كوبرى شبرا القديم مر « بقصور الشوام » وكانت هذه « القصور » عبارة عن حدائق تسكنها الطبقة الثرية من السوريين فى القاهرة . أما شارع شبرا فكان طريقا تحف به الأشجار الباسقة كشارع الهرم ، وكانت تمتد على جانبيه الحقول والرياض تتخللها قصور فخمة أشهرها قصر قنصل العجم ! .

وكانت تمتد أمام المدرسة التوفيقية حديقة عامة تدعى حديقة « شيكولانى » تنتهى بقصر من قصور الخديوى اسماعيل ... وكان تلاميذ المدرسة التوفيقية يقيمون « سباق ربع الميل » فى هذه الحديقة ، أما وراء ذلك فكانت حقول خضراء يتوسطها قصر محمد على ... وفى ذلك التاريخ لم تكن خطوط الترام قد امتدت فى شوارع القاهرة ، فكان تلاميذ المدرسة التوفيقية ينتقلون بوساطة « أتوبيس » تجره البغال ، يبدأ رحلته من حى الظاهر أو الفجالة ، ويدفع الطالب اشتراكا شهريا قدره ٣٥ قرشا ارتفع فيما بعد الى جنيه ... وويل الطالب الذى يعاقب بالحبس فى آخر النهار ، اذ كان عليه أن يقطع شارع شبرا المظلم الموحش على قدميه ! .

ولم تكن محطة مصر الحالية قد شيدت حتى ذلك التاريخ ، بل كانت بناء متواضعا متهدما يطل على ميدان ضيق هو ميدان محطة مصر • وكانت ترعة الاسماعيلية تمتد حتى مكان محطة كوبرى الليمون اليوم • ويمتد على جانبها شارع عباس (الملكة نازلى) • وكان شارع شبرا متربا فى الصيف موحلا فى الشتاء مظلما لا يسلم السائر فيه ليلا من فتك قطاع الطريق •

كان ناظر المدرسة التوفيقية مربيا فرنسيا يسمى « بلتيه بك » ، وكان كغيره من الفرنسيين فى ذلك العهد ينكر على الانجليز احتلالهم مصر ••• ولهذا فلا عجب أن كان يبدى عطفا نحو التلميذ « نجيب محفوظ » لتفوقه فى اللغة الفرنسية ، وكان اهتمام المدرسة باللغات كبيرا • فمن وسائل هذا الاهتمام أنها كانت توزع كتبا انجليزية وفرنسية على من يحب المطالعة أثناء الأجازة الصيفية من تلاميذها على أن تعقد امتحان مسابقة فى اللغات عند افتتاح العام الدراسى ••• وكانت تقيم احتفالا عظيما بهذه المناسبة يحضره رجال الوزارة وتوزع المكافآت على التلاميذ المتفوقين •

وكان مدرس اللغة الانجليزية بالمدرسة التوفيقية هو المستر « فوستر سمث » وكان معلما ممتازا من الطراز القديم ، لا يحمل مؤهلات جامعية بل كان يعتمد فى عمله على خبرته الطويلة فى التدريس ، اذ أنه اشتغل دهرا فى مدرسة أولية بانجلترا ، وكان

مع انحناء ظهره بسبب سنه المتقدمة عسكريا فى نظامه وقـد لفت نظره الطالب الجديد « نجيب محفوظ » فأرسـل فى طلبه مرة ولما حضر همس فى أذنه قائلا : « قرأت موضوع انشائك ، وصدقنى أننى سوف أسامحك ••• ولكن على أن تصـدقنى القول ••• من أين نقلت هـذا الموضوع » ••• ودافع نجيب محفوظ عن نفسه ، وأعلن للأستاذ أنه هو الذى كتب الموضوع من بنات أفكاره ، وأنه على استعداد لأن يكتبه ثانية •

وكان أستاذ الرياضـيات هو المرحوم محمود بك زكى ، وكان أكثر التلاميـذ تفوقـا فى هـذه المـادة هو الطـالب محمد خالد حسنين (باشا) كما كان الطالب محمد حلمى عيسى (باشا) متفوقا فى القسم الفرنسى •

وكان أبرز معلمى المدرسة التوفيقية فى ذلك العهد هو «الشيخ حامد موسى » ••• كان من الأساتذة الأفذاذ الذين لم يفهمهم أهل زمانهم ، اذ جاء قبل العصر الذى عاش فيه تلاميذه على الأقل ، وكان فى طريقته مجددا مبتكرا ، لأنه كان يرى فى عمله رسالة عليه أن يؤديها فى أمانة وحرص ، فكان هدفه أن ينجب طبقة تتذوق الأدب العربى على حقيقته ، فكان يعنى بالاقتباسات من أمهات كتب الأدب ، ويقضى الساعات فى شرحها وتبين نواحى جمالها ••• حتى ينبه الملكة الفنية فى نفوس التلاميذ ••• وقد وجد هـذا الشيخ الكريم فى التلميذ « نجيب محفوظ » ما كان

ينشده فى تلاميذه من غيرة ومثابرة وتفوق فى اللغة ، فأشــار عليه بتجويد الخط اذ نال فى الشهادة الابتدائية درجة ضعيفة فيه كادت أن تؤدى الى رسوبه ، فعكف على تجويده حتى برع فيه ، وكانت موضــوعات نجيب الانشائية نماذج يفتخر بهـا أستاذه ... وكان يعقب عليها بتأشيرات لطيفة مثل : « أجدت يا واحد الأدباء » و « فى غاية الاتقان » و « عبارة مرضية » و « هكذا والا فلا » و « شىء كنت أنتظره منك » و « قد حقق الله ظنى فيك » و « لكل اسم من مسماه نصيب » و « هكذا تكون الكتابة ، لله أنت » و « أجدت كل الاجادة ، ولكن قد يعثر الجواد (اذا أخطأ فى كلمة) » . وسوف نعرض فى الباب الخــاص بقدرات نجيب محفوظ البيانيــة واحدا من هــذه الموضوعات .

وفى المدرسة التوفيقية الثانوية أظهر الفتى الهادىء الدءوب نجيب محفوظ جدا واجتهادا ، فلمع نجمــه ، وشجعه ذلك على أن يحاول أن يختصر سنوات الدراسة الثانوية ، وثبت ذلك العزم فى نفســه ، أنه حصــــل على ترتيب الأول بفــارق خمس وأربعين درجة أكثر من الثانى !! وهو الطالب القادم الى العاصمة على هؤلاء الذين هم فيها من قبل ، وحــدث نجيب محفوظ أحد أساتذته الفرنسيين برغبته ، فسر به ، وشجعه على ذلك ، ثم ان الوزارة أجازت لمن يأنس فى نفسه الكفاية من طلبة

السنة قبل النهائيــة أن يتقــدم للبكالوريا مباشرة ، وتقــدم نجيب محفوظ لهذا الامتحان (١٨٩٨) ، ونال التوفيق ، وكان التاسع عشر فى البكالوريا على مستوى القطر المصرى ، هكذا أعلنت النتيجــة ، ولكن الأيــام تمضى ، ثم يعلن الزمــن أن نجيب محفوظ كان أول البكالوريا فى ذلك العام ، وذلك حين يأمر على باشا ماهر وزير المعارف بعرض أوراق اجابة أوائل الامتحانات العامة على الجمهور فى متحف أقيم لذلك ، وكان هو الآخر منهم ، فيظهر للناس أن خطــأ غير مقصود فى جمع الدرجات هو الذى تأخر بنجيب محفوظ من مرتبــة الأول الى مرتبة التاسع عشر !!

وكان قــد تقدم لامتحــان البكالوريا فى عــام ١٨٩٨ ، ٣٤٤ طالبا منهم ٩٣ من منازلهم ، ونجح منهم ٩٨ طالبا ، وكانت الانجليزية هى لغة الاجابة على معظم العلوم ، فلم يكن الطلبة ليجيبوا باللغة العربية الا فى مواد الهندســة والجبر والحساب واللغة العربيــة بالطبع . وكان امتحان هــذه المــادة الأخيرة يتكون من سؤال واحد هو : تكلم عن البيت الآتى من النحو والصرف وعلوم البلاغة مع جعله موضوعا للانشاء وهو :

اذا كنت فى عمــل شارعا
فمهد اليه سبيل النجــاح

وكان من ناجحى هذه السنة من المدرسة التوفيقية الطلبة

يونس صالح ، كامل عثمان غالب ، محمد صالح ، زكريا نامق ، محمد حلمي عيسى ، زكي مرقص .

والتحق نجيب محفوظ بمدرسة الطب سنة ثمان وتسعين وثمانمئة وألف (١٨٩٨) ، وهو نفس العام الذى تقرر فيه أن يعدل من التحول من التعليم باللغة العربية الى التعليم باللغة الانجليزية (هل يكفى تعليم الطب بالانجليزية فى كلياتنا قرنا من الزمان فتعود الى العربية ان شاء الله عام ١٩٩٨) .

وكانت مدرسة الطب يومئذ فى أسوأ حالاتها ، لم يكن فيها من الدراسة ما ينصرف الطلاب اليه ، ولهذا فليس غريبا ما يرويه نجيب محفوظ من أنه استغل عامه الأول فى مدرسة الطب فى مطالعات روايات ديكنز ، ودوماس ، وهوجو فأتى على أكثرها .

فى مدرسة الطب :

التحق بمدرسة الطب فى عام ١٨٩٨ من الحاصلين على شهادة البكالوريا أى من الثمانية والتسعين واحد وعشرون طالبا (تخرج منهم بعد أربع سنوات ثلاثة عشر) من بينهم الطالب « نجيب محفوظ » رغم أن عائلته كانت تعارض معارضة شديدة فى دخوله مدرسة الطب ، اذ أن باب الوظيفة كان مفتوحا أمامه .. دخل « نجيب » مدرسة الطب فى الوقت الذى كانت هذه المدرسة العالية تقف فيه فى مفترق الطرق : اذ أنه فى

عـام ١٨٩٣ عين لهـا ــ للمرة الأولى ــ وكيل انجليزى هو « الدكتور كيتنج » الذى أصبح فيما بعد ناظـرا لها ، ومع حضور هـذا الوكيل الانجليزى زحفت السياسة الانجليزية الى هذا المعهد العظيم ... فتحولت هيئة التدريس فى المعهد تدريجيا الى هيئـة انجليزية صرفـة ... صبغته بصبغة انجليزيـة فى كل شىء .

كان ناظر مدرسـة الطب عندما التحق بها الطالب نجيب محفوظ هو المرحوم الدكتور ابراهيم باشا حسن وكان عالمـا فاضلا متخصصا فى الامراض الباطنية الا أنه لم يكن له فى ادارة المدرسة صوت مسموع ، وكان الوكيل الدكتور كيتنج يعمل جادا على اقصاء الأساتذة المصريين من وظائف التدريس وتحويلهم الى وزارة المعارف ومصلحة الصحة ، وأخذ يشل نشاط من بقى منهم فكلف على بك حيدر أستاذ الرمد بتدريس أمراض الجلد ، ومنع الجراح شكرى باشا من الاشراف على المستشفى ! .

صحيح أن المستوى العلمى للطب فى مصر فى ذلك الحين قـد انخفض كثـيرا بسبب آخر هـو وقف الارساليات الى الخـارج ، وصحيح كذلك أن الدكتور كيتنج قد استقدم الى مصر كثيرا من أفذاذ الأطباء الأوربيين مثل « اليوت سمث » و « فيشر » و « لوس » و « بيتر » ــ والأخيرين من الألمـان ــ ولكن الغـاء اللغـة العربيـة كشرط لا مفر منه للاصـلاح

أمر لا يسوغه الا عقل استعمارى وكانت نتيجة ذلك أن قضى على التأليف الطبى العربى الذى بشائره قد ابتدأت فى عهد محمد على واتسع نطاقه فى عهد اسماعيل . كان كيتنج بلاشك كما ذكرنا فى كتابنا عن الدكتور على ابراهيم « امبراطوريا » ، يصلح ولكن لمصلحة الامبراطورية البريطانية ، ويبذل جهدا صادقا ولكن من أجل مصلحة بلاده ، فاذا نال بلادنا من ذلك شيء فلا بأس .. ولعل من هذا الشيء الذى نالته مصر ، هو ذلك التعليم الذى حظى به على ابراهيم ونجيب محفوظ ومن أتى بعدهما فى مدرسة طب مصرية مرتبطة بالامبراطورية الكبرى يومها .

وكان مجموع طلبة مدرسة الطب يومها فى كل سنواتها نحوا من أربعين ، ولما التحق الطالب « نجيب محفوظ » وزملاؤه ، بالسنة الأولى واجهتهم مشكلة الدراسة باللغة الانجليزية ، لا لجهلهم بها بل لعدم وصول أساتذة يدرسون بهذه اللغة بعد تحويل الأساتذة المصريين الى وظائف أخرى ...

انقضى معظم العام دون أن يدرس الطلبة شيئا من التشريح حتى انصرف الطالب « نجيب محفوظ » الى دراسة أدب اللغة الانجليزية والفرنسية على سبيل التسلية كما ذكرنا ! ولم تحل مشكلة التشريح حلا وسطا حتى الشهور الأخيرة من العام الا بتعيين الدكتور محمد ناشد الذى استطاع التدريس باللغة الانجليزية مع أنها كانت متوسطة ! .

وفى مدرسة الطب نما جزء كبير من شخصية نجيب محفوظ العالم الكبير فيما بعد وكان « هدوء طبعه ، ورقة خلقــه » ، واهتمــامه وجده هما أبرز الصفات التى عرفهــا عنه زملاؤه واللاحقون كما رووا بعد ذلك ، وفى مدرسة الطب عرف نجيب محفوظ بالطبع زملاء كثيرين شاركوه المهنة بعد ذلك وقد عرف قدرهم وعرفوا جميعا قدره ، وفى تلك المدرسة تلقى علومه على يد الأساتذة مادن ، وميلتون ، وسيمرز ، وولسن ، وفيشر ، وسندويث ، تولر ، وبيتر ، ولوس ، وشميت وغيرهم وقد كان هؤلاء جميعا من أساطين الطب والعلم فى ذلك العهد ٠

فى مدرســة الطب المصريــة :

قضى الطالب « نجيب محفوظ »أربع سنوات ، وكان من زملائه أحمد حلمى (باشا) وحافظ زكى (بك) ومحمد زكى (بك) ٠ أما على ابراهيم (باشا) فكان يسبقه بسنة واحدة ٠٠٠ وكان تفوق نجيب محفوظ فى اللغة الانجليزية خير عون له ٠ وكان أول فرقته فى امتحانات النقل بين السنوات الدراسية الا فى السنة الثالثة حين ظن الممتحن الشفهى فى الجراحــة أن نجيب أخطأ فى تشخيصه ولم يكن مخطئا ولكن الممتحن لم يتنبه الى هذا الا بعد فوات الوقت ، فلم يجد الاعتذار فكان فى هــذه السنة وحدها ثالث الناجحين ٠

واستمر نجيب محفوظ فى دراسته حتى وصل الى السنة

النهائية . وقبل دخولهم الامتحان النهائى ظهر وباء الكوليرا فى يوليو سنة ١٩٠٢ فى بلدة « موشا » بمديرية أسيوط فتطوع للعمل ، وعين بالقاهرة لمراقبة القادمين من الصعيد والكشف عليهم . ولكنه لم يرض بهذا المركز مع ما فيه من السلامة وطلب بالحاح أن ينقل الى موشا موطن الوباء ليعمل محل طبيب توفى فيها بالكوليرا .

وفى يونية عام ١٩٠٢ عقد امتحان مدرسة الطب وكان أول الناجحين هو الطبيب نجيب محفوظ اذ حصل على أكبر مجموع فى الجراحة والأمراض الباطنية ، وكانت لجنة الامتحان مكونة من أساتذة المدرسة ومن عدد آخر من أساتذة الطب البريطانيين .

كان النظام الصحى يومها يقتضى قضاء سنة الامتياز فى مستشفى من مستشفيات الأقاليم ، ووقع حظ نجيب محفوظ فى مستشفى السويس ، وكانت السويس يومها تمثل بوابة مصر على البلاد (الشرقية) وبخاصة الحجاز حيث يذهب الناس الى الحج ويعودون ، والهند حيث كانت مصر معبرا للاحتلال الانجليزى الى المستعمرة الكبرى فى الهند .

وفى السويس استطاع نجيب محفوظ أن يبدأ فى تكوين خبرته الاكلينيكية ، كان عليه بحكم وظيفته أن يفحص الركاب شأن أطباء الحجر الصحى ، وفى ذلك الزمن كان المسافرون

بالطبع يحملون الامراض من حيث أتوا ، واستطاع نجيب محفوظ أن يأخذ نفسه ـ كما روى ـ بتدوين المشاهدات وسير المرض والعلاج • وهناك فى السويس عرف نجيب محفوظ واحدا من علماء البكتريولوجيا ، الأستاذ روفر وكان مديرا للحجر ، وهناك كذلك عرف كروزيل وتوثقت به علاقته ، حتى عمل معه فى عيادته الخاصة ، وحل محله فى هذه العيادة حتى سافر فى أجازته للخارج فنمت فيه منذ مرحلة مبكرة الخبرة بالعمل الحر فى مجال الطب • وهى خبرة كانت ولازالت لازمـة ، لا لوضع الطبيب فى الحياة الاجتماعية فحسب ، ولكن لخبرته الاكلينيكية فى معاملة المرضى أنفسهم •

ومن أصدق العبارات فى تصوير بزوغ نجم نجيب محفوظ فى هذه الفترة المبكرة من شبابه ما يرويه الدكتور سليمان عزمى فيقول : ـ وفى أواخر سنة ١٩٠٦ أتممت أنـا دراستى وعينت طبيبا مساعدا بمستشفى السويس فى نفس الوظيفة التى كان يشغلها محفوظ قبلى ومما استلفت نظرى فى ذلك الحين الذكريات الطيبة التى تركها وتحدث بها الناس والتقدير العظيم الذى قدره به الدكتـور كرسويل كرزويل الذى كان رئيسا للمستشفى اذ كان يشيد بذكره فى كل مناسبة • وبعد فترة من الزمان عدت الى كلية الطب فوجدت محفوظا هو هو الشـاب المثابر المجد لا فى المستشفى فحسب بل فى عمله الخارجى أيضا حيث شق

لنفسه طريقا رفع به سمعة الطبيب المصرى فصارت عيادته الخاصة تغص بالمريضات اللاتى يقصدنه لينلن الشفاء على يديه ».

نزع نجيب محفوظ الى اتخاذ أمراض النساء والولادة تخصصا له ، ومع أنه لم يعلن عن هذا فى وضوح جلى ، الا أن هذا الاعلان لم يكن بالشيء ذى الشأن ، ولكن المتتبع لخط حياته فيما بعد ذلك سوف يجد من الوضوح بمكان كيف أن نجيب باشا قد رسم لنفسه هذا الطريق ، وأخذ يعبده لنفسه ، وسوف نرى من هذا فى سيرته الدلائل والامارات تتلو بعضها ، ولكننا ينبغى لنا أن نقف معه على سبب هذا الاختيار ، وهو ما لم يكن الرجل يفيض فى الحديث عنه ، بل ما قد يكون أقرب الى التجاهل ، ومع هذا فاننا نجد فى كلمات زملائه فى حفل تكريمه احدى الروايات الهامة منسوبة الى محفوظ نفسه حين يقول (مع تصرف بالاختصار) : ـ « لما كنت أعمل فى مكافحة الكوليرا بالاسكندرية فى عام ١٩٠٢ تعرفت بوكيل المستشفى الأميرى ولما توطدت صداقتنا طلبنى كعادته لمصاحبته الى حالة ولادة متعسرة وكانت المريضة شابة من أصل شركسى من عائلة كبيرة معروفة بمدينة الاسكندرية ، وكانت مهمتى أن أقوم باعطاء البنج ، أما الولادة فيتولاها هو مع واحد من مساعديه من أطباء المستشفى وقد حاول كل منهما توليدها بالجفت فلم

تنجح هذه المحاولات ، فاتفقا على عمل التحويل القدمى للجنين لكنهما لم يتمكنا من الوصـــول الى القدم ، فطلبا منى أن أبحث عن القدم لأن ذراعى كانت نحيفة ويسهل ادخالها الى باطن الرحم ولكنى تنحيت عن ذلك معتذرا بأنى لم يسبق لى أن حضرت قبل ذلك أية ولادة طبيعية كانت أو متعسرة ، فأعادا الكرة مع المريضة وأخيرا نجحا فى اخراج القدم وتخليص الجسم الى الأكتـــاف ، ولكن الرأس لم يخرج ، فأخذا يشتدان فى الجذب حتى انفصل الجسم عن الرأس الذى بقى داخل الرحم وذهبت جهودهما فى اخراج الرأس أدراج الرياح ، فأشرت عليهما بأن يستدعيا أحد الأطباء الاخصائيين فى الولادة بالمدينة فأعلمانى بأنه لا يوجد بالاسكندرية طبيب واحد مصرى أو أجنبى مختص بالتوليد ، ولم يأت الصباح على هـــذه البائسة الا وقد وافاها القضـــاء المحتوم والرأس لايزال داخل الرحم •

وقد تركت هذه الحالة فى نفسى أثرا عميقا جدا حتى أنى لم أستطع النوم ليلتين متواليتين ولم يهدأ لى بال الا فى الليلة الثالثة التى أخذت فيها على نفسى عهدا أن أكرس حياتى لدراسة الولادة وخدمة المتعسرات فيها » •

تخرج نجيب محفوظ ، وقضى سنة الامتياز فى مستشفى السويس ، (هـــكذا كانت سنة الامتياز تمضى خـــارج قصر العينى) ، وهناك بدأت تجربة نجيب محفوظ المهنية حين بدأ فى

ممارســة الطب الاكلينكى معتمدا الى حد كبير على نفســه ، ومعلوماته ، وبعيدا عن الأساتذة والمراجع •

وهنــاك أظهر نجيب محفوظ من الجد والمثابرة ما شجع رئيسة الدكتور كرزويل يعرض عليه تعيينه طبيبا أول بمستشفى الفيوم ، وهى وظيفة رفيعة القدر يومها ، ولكن نجيب محفوظ يبدأ فى تنفيذ سياساته نحو اتخــاذ النساء والولادة تخصصا ، فيلح فى الاعتذار عن قبول هذا المركز المرموق ، ويلح عليــه كرزويل ، وكان بينهما ود أتاح لمحفوظ أن يبوح له برغبتــه الدفينة ، وكان لكرزويل الذى لا نعرف عنه غير هــذا الموقف النبيل مع محفوظ فضل كبير حين أهدى صاحبنا عشرة كتب فى أمراض النساء والولادة كانت بلاشك هى الينبوع الذى استقى منه محفوظ معلوماته الأولى فى هذين الفنين ، هــذا بالاضافــة الى كتابه الذى كتبــه الى الســير ينشنج مدير مصلحــة الصحــة وقتهــا ، وفيه قــال عن نجيب محفوظ : « اننى مهما أطنبت فى كفاءة هذا الشاب وسمو أخلاقه فلن أفيه حقه وانى أنصح (بادماجه) فى هيئة التدريس بمستشفى قصر العينى لأنى أتوقع له مستقبلا باهرا فى البحث العلمى » •

وبناء على هــذه التوصية من أجنبى على وطنى •• عين الدكتور نجيب محفوظ طبيبا للتخدير فى مستشفى قصر العينى ومساعدا ثانيا للدكتور فرنك ملفرن •

وبعد تعيين الدكتور محفوظ فى وظيفتـه الجديـدة التى اتخذها تكأة لاشتغاله بفنى الولادة وأمراض النساء تبين له أنه لا يوجد ما يسمى عيادة خارجية لأمراض النساء وتطوع الدكتور محفوظ بالعمل فى هـذه العيادة الخارجية من الساعة الثامنة الى التاسعة صباحا قبل الموعد الرسمى للعمل فى غرفة العمليات على أن يخصص هذا الوقت لهذا التخصص • فوافق الدكتور كيتنج على افتتاح هـذه العيادة ولمـا اشتد الاقبال عليهـا اضطر أولو الأمـر لتخصيص عشرة أسرة للولادة وأمـراض النساء بالقسم الداخلى بالمستشفى ، خمسة منها بادارة مستر مادن ، وخمسة بادارة مستر ملتون ، وهما أستاذا الجراحـة فى ذلك الوقت وانتدب الدكتور محفوظ (فوق عمله بالتخدير) مساعدا لهما ووكل اليه القيام بالولادات المتعسرة التى تجرى بالمستشفى •

وكان نجـاح هـذا القسم ملحوظا سـواء فى العيـادة الخارجية أو فى القسم الداخلى وزاد عدد الولادات المتعسرة زيادة كبرى ، اذ كان عدد الولادات التى ترسل للمستشفى أكثر بكثير من عدد الأسرة المخصصة فقد اتفق الدكتور محفوظ مع مفتشى الصحة على القيام بها عندهم بلا مقابل ، فكان يذهب كل ليلة تقريبا الى ولادة متعسرة أو أكثر بمنازل المرضى الفقراء وداوم على ذلك مدة عشرين عاما أتيحت له فيها كل أسـباب المران والبحث حتى بلغ الذروة فى فنه •

وفى سنة ١٩٠٥ قدم (بمساعدة مستر مادن) تقريرا لادارة المستشفى عن العمـل بالقسم الجديد فى خـلال سنتين أجريت فيهما ١٦٠ جراحة فى السنة ، قـام الدكتور محفوظ باجراء مائة منها انتهت كلها بالشفاء . (وقد نشر هذا التقرير بمجلة للانست ذائعة الصيت) .

وفى سنة ١٩٠٦ تجـاوز عدد المرضى بالعيادة الخارجيـة أكثر من مائة مريض فى اليوم الواحد فتقدم الدكتور محفوظ بتقرير الى الدكتور كيتنج مبينا فيه ضرورة افتتاح قسم خاص بأمراض النساء والولادة ومقترحا أن يعين فيه عالم اخصـائى يقوم هو بمساعدته فوافق كيتنج كما وافق مجلس ادارة المدرسة على ذلك .

وقبل أن ينصرم العام وفى ديسمبر سنة ١٩٠٦ عين الدكتور روى دوبن الذى كان مسـاعدا لمدير مستشفى الروتندا بدبلن رئيسا للقسم الجديد وعين الدكتور محفوظ مساعدا له .

ولـما نشبت الحرب العالمية الأولى تطوع الدكتور دوبن فى الجيش البريطـانى فقام الدكتور محفوظ بأعباء ادارة قسم أمراض النساء والولادة طوال مدة الحرب على سبيل النيابة عن الأستاذ الغائب .

ولما كان عدد الأسرة لايزال قليلا فقد اقترح الدكتور محفوظ على ادارة المستشفى (وكان الدكتور كيتنج قد أحيل الى المعاش وعين مكانه المستر ريتشردز) أن يساعده فى التقدم الى مجلس ادارة ملجأ لادى كرومر (وهو مستوصف صغير بنى ملاصقا لقصر العينى وجمعت أمواله بالاكتتاب العام وكان مخصصا للقطاء) على طلب تخصيص هذا الملجأ لقسم أمراض النساء والولادة وأن يبقى الدور العلوى منه مخصصا للقطاء وكان عددهم لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة وشاء الله أن تهيأ لهم هذه الموافقة وأنشىء بهذا المبنى قسم أمراض النساء والولادة الجديد وخصص فيه الدور الأرضى للعيادة الخارجية .

وفى سنة ١٩١٩ أقدم الدكتور محفوظ بعد كفاح عنيف على افتتاح قسم للتوليد الخارجى وكان الاعتقاد السائد وقتئذ أن انشاء قسم مثل هذا مصيره الفشل المحقق ، ولكن نجاح هذا القسم كان باهرا ، وقد حفزه على المضى فيه قيام جمعية رعاية الأطفال المصرية بفضل المجهود الصادق الذى بذله الطبيب الشاب الدكتور حافظ عفيفى (رئيس الديوان الملكى فيما بعد) مؤسس الجمعية ورئيسها عقب عودته من دبلن وحصوله على شهادات التخصص فى أمراض النساء والولادة وما شاهده هناك من أساليب وطرق حديثة فى رعاية الأمومة والطفولة فأنشأ مستشفى للولادة ورعاية الاطفال فى الدرب

الأحمر وألحق به قسما للتوليد الخارجى ، وأيضا كان النجاح الذى صادف قسم التوليد الخارجى الذى أنشأته جمعية لادى كرومر بالمنشية بالقلعة وعهدت به للدكتور محفوظ بادارته.

ولما اتضح فيما بعد لمصلحة الصحة العمومية ما أتاه هذا العمل الجليل من الفائدة العظيمة وبعد قيام هذا العمل بعدة سنوات (سنة ١٩٢٧) أسست المصلحة عدة مراكز لرعاية الطفولة والأمومة والتوليد الخارجى فى شتى أنحاء القطر وهى تلك التى نمت فى عهدنا هذا حتى غطت الأحياء والقرى .

كان نجيب محفوظ على قدر كبير من الذكاء بحيث أدرك أنه لابد من وجود خدمات منتشرة تساعد وتتلقى مساعدة قسم النساء فى قصر العينى ، ومن هنا بدأت فكرة انشاء العيادات العمومية .

وكان أول ما انشىء من عيادات هى عيادة باب البحر ، وجعل خدماتها تقدم للجمهور مجانا ، فلم تكن تأتيه فى بادىء الأمر الا الخادمات وسيدات الطبقة الدنيا ، فلما اشتهر أمر العيادة ، وذاع سر نجاحها أقبلت عليها سيدات الطبقة الراقية ، ولا ينسب الدكتور محفوظ نجاحه فى هذه العيادة الى الهمة واليقظة وحدهما « ولكنه يعترف بأنه كان هناك جانب كبير من حسن الحظ » .

ثم كان اهتمامه بمدرسة المولدات والممرضات خير صورة للفهم الصحيح لأهميـة توظيف القوى البشريـة فى عمليـة التنميـة الصحية على نحو ناجح ومؤثر •• وقـد اتيح لنجيب محفوظ أن ينفرد ــ تقريبا ــ بصياغة مناهج التعليم فى هـذه المدرسـة على نحو ما هيأته له التجـارب من قبـل ، وتولى نجيب محفوظ بنفسه التدريس فى هذه المدرسة بل والأهم من ذلك التأليف لها •

ولعل من نواحى العظمة البـارزة فى نجيب باشـا أنه لم يستنكف أبدا أن يكون أستاذا للممرضات والمولدات ، وكان يتولى هذا الأمر بنفسه ، حتى ان الدكتور ابراهيم شوقى عبر عن ذلك بأنه كان العمود الفقرى لمدرسة الممرضلت والمولدات بقصر العينى ، وهى المدرسـة التى أدت فى رأى الدكتـور شوقى باشا ــ خدمات جليلة للبـلاد بتخريج طبقة ممتازة من المولدات انتشرت فى أنحاء القطر وبثت تعاليمها فى جميع أرجائه •

كان محفوظ باشا يدرس التمريض العـام ثم فن الولادة لتلميذات المدرسة المذكورة وبقى كذلك أكثر من ثلاثين سـنة فتخرج على يديه ما لا يقل عن ألف مولدة أو حكيمة مكتملات التعليم والمران العملى وكان كتاباه فى فن التمريض وفن الولادة ولا يزالان هما المرجع المعتمد فى دراسات هذين الفنين •

وقد اسهم نجيب محفوظ بحكم شخصيته البارزة فى كثير من الجمعيات الوطنية فكان عضوا فى المجلس الأعلى لجمعيـــة الهلال الأحمر وكان رئيسا لمجلس ادارة مستشفى الهلال الأحمر لفترة من الزمن ، كما كان عضـــوا فى مجلس ادارة جمعية رعاية الاطفال وفى مجلس ادارة مستشفى شبرا الخيرى وفى مجلس ادارة المستشفى القبطى .

وفى صعيد الجمعيات العلمية كان الدكتور نجيب محفوظ الوكيل الأول للجمعيـــة الطبية المصريـــة لفترة طويلة جدا .. كما كان الرئيس الدائم (مدى الحياة) للجمعية المصرية للولادة وأمراض النساء ، وكذلك كان عضـــوا فى مجلس ادارة جمعية تاريخ العلوم وشعبة تاريخ الطب .

كانت للدكتـــور نجيب محفوظ اليد الطولى فى انشـــاء المستشفى القبطى وقـــد شاركه الجهـــد كل من ابراهيم فهمى المنياوى باشا ، واسكندر فهمى جرجاوى ، وقد تم لهم انشـــاء المستشفى من خلال الجمعية الخيرية القبطية التى كان يرأســـها جرجس باشا انطون ، وحرصوا على أن تكون للمستشفى الصفة القومية ، وقد خرج المستشفى الى الوجود ســـنة ستة وعشرين وتسعمائة وألف (١٩٢٦) ، ولايزال هـــذا المستشفى الى اليوم يؤدى خدماته كواحد من مستشفيات المؤسسة العلاجية لمحافظة القـــاهرة .

وقـد نجح الدكتور نجيب محفوظ فى تحويـل ملجـأ اللادى كرومر الى مستشفى للولادة ، وكان هـذا الملجأ يضم عددا كبيرا من اللقطاء يموت أغلبهم بالالتهاب الرئوى ، وقـد نظم الدكتور نجيب محفوظ العمل فى طوابق الملجأ الثلاثة بحيث خصص الدور الأرضى كعيادة خارجية والثانى للولادات الطبيعية والثالث للولادة العسرة .

وكذلك كان الدكتـور نجيب محفوظ من أبرز مؤسسى مستشفى الولادة بشبرا ، وعمل به ثلاثين عاما متصلة .

وكان نجيب محفوظ باشـا من أبرز المتعاونين مع وزارة الشئون الاجتماعية فى أنشطتها المتعلقة بتنظيم الأسرة ومكافحة الاجهاض ، وقد ألقى عددا من المحـاضرات فى ندوات جمعيـة النساء والولادة بوزارة الصحة .

وفى أثناء الحرب العالمية الثانية لاقى الدكتور نجيب محفوظ عناء شديدا من جراء تزايد الأعبـاء الملقاة على عاتقـه فى ظل ظروف الحرب القاسية ، وكان عليه أن يتولى توليد زوجـات الضباط الانجليز ، ومتابعـة أحوالهن قبل الولادة وبعدها ، ومعالجة حالات أمراض النساء التى تلم بهن ، وكان يفعل ذلك كله من دون أجر فى أغلب الأحوال ، وكان الانجليز قد اتخذوا من مستشفى الأنجلو مستشفى خاصا لرعاية سيداتهن .

وبالاضافة الى هذا كان عليه أن يتولى كثيرا من العمليات فى مستشفى الجيش ، وفى مستشفى قصر العينى ، وفى جناحه الكبير بالمستشفى القبطى ، ومع أن السن كان قد تقدم به الى ما بعد الستين فقد كان نجيب محفوظ لا يكل ولا يمل غير عابىء بصعوبات ظروف العمل مما جعله يصاب ذات مرة بالتيفوس نتيجة نقص القفازات الجراحية .

ومن أبرز نواحى الاصلاح الاجتماعى التى صاغها الدكتور نجيب محفوظ ، تجربته فى تشغيل المرأة المصرية فى وظائف الحكيمات .. وذلك أنه عندما بدأ فى انشاء مراكز توليد الحوامل فى باب الشعرية وبولاق تحت مسئوليته الشخصية الخاصة ، استعان بعدد من الفتيات ليشغلن هذه الوظائف التى كانت تقتضى العمل فى أوقات تمتد تبعا لطبيعة هذه المهنة الشاقة ، وفى سبيل اقناع المسئولين عن الصحة بأهمية الدور الذى سوف يلعبنه بعد هذا ، عرض أن يتحمل صرف مرتباتهن من جيبه الخاص ، ومع هذا لم يكن المجتمع يومها ليقتنع ، وجاء أولياء الأمور للدكتور نجيب محفوظ يستنكرون فسألهم فى استنكار : هل ستأجرون أغوات لمرافقتهن ؟ ... ونجحت الفكرة ويذكر الدكتور نجيب باشا فى فخر « أن نجاحها فى مصر سبق نجاحها فى انجلترا بسنة » .

وقد منح الدكتور نجيب محفوظ درجة الأستاذية فى

يناير ١٩٢٩ ، وبقى كذلك حتى احيل الى التقاعد ، ولما كانت درجات الأساتذة الجامعيين وقتها تندرج فى درجات الدولة (الكادر العام) فقد رقى الدكتور محفوظ باشا الى درجة مدير عام فى أكتوبر ١٩٣٩ ، وهى يومئذ من أرفع درجات السلم الوظيفى الذى يخضع له أساتذة الجامعة كذلك ، وبقى محفوظ باشا فى هذه الدرجة الى وقت احالته للتقاعد (١٩٤٢) ولكنه صدر له قرار وزارى بمد خدمته خمس سنوات أخرى (١٩٤٢ — ١٩٤٧) استاذا فى كلية الطب .

وحين احيل للتقاعد كان قد أصبح معه من الأساتذة الوطنيين فى قسم أمراض النساء والولادة كل من الدكتور أحمد شفيق باشا والدكتور محمد مجدى باشا والدكتور محمود بك اسماعيل .. وكرمه زميله الدكتور سليمان عزمى فأنشأ له حجرة فى مواجهة قاعة اجتماعات مجلس الكلية .

نال الدكتور نجيب محفوظ تقدير بلاده طيلة حياته ، أنعم عليه بنيشان النيل (١٩١٩) وفى ١٩٢٥ نال درجة البكوية من الدرجة الثانية (أى أصبح حسب اصطلاحات ألقاب الشرف المصرية فى العهد الملكى : صاحب العزة) وبعدها بخمس سنوات (١٩٣٠) نال البكوية من الدرجة الأولى (أى أصبح حسب اصطلاحات ألقاب الشرف المصرية : حضرة صاحب العزة) ثم نال نجيب محفوظ درجة الباشوية عام ١٩٣٧ فى أوائل عهد

الملك فاروق . وأنعم عليه بنيشان المعارف من الطبقة الأولى وعلى الصعيد العلمى منح عالمنا (درجة) ماجستير الجراحة (الفخرية) من جامعة فؤاد الأول (١٩٣٠) ، ونال جائزة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم (١٩٤٨) وجائزة فاروق الأول (جوائز الدولة فيما بعد) (١٩٥١) .

وقد تألفت (١٩٥٠) لجنة برئاسة الدكتور ابراهيم شوقى باشا لانشاء جائزة مالية يطلق عليها اسم الدكتور نجيب محفوظ وجمعت هذه اللجنة للجائزة أكثر من ألفين من الجنيهات ، وأقيم حفل لاعلان تقرير انشاء الجائزة فى فندق سميراميس فى الرابع عشر من يونيو ١٩٥٠) ، والقيت فى هذا الحفل عدة كلمات فى تكريم الرجل وشخصه وعلمه ، وقد نشرت هذه الكلمات بعد ذلك فى كتاب « الدكتور نجيب محفوظ كما نعرفه » .

وفى سنة تسع وخمسين وتسعمائة وألف (١٩٥٩) رشحت ثلاث هيئات الدكتور نجيب محفوظ لنيل جائزة الدولة التقديرية فى العلوم ، وكانت هذه الهيئات هى : الجمعية المصرية لتاريخ العلوم ، والاتحاد العلمى المصرى ، وكلية الطب بجامعة القاهرة ، ونال الدكتور نجيب باشا هذه الجائزة من المرة الأولى فى التصويت فى السنة الأولى لمنحها ، وقد تسلم هذه

الجائزة من الرئيس عبد الناصر ، وألقى يومها خطاب الفائزين فى عيد العلم (١٩٦٠) .

ثم ان الجمعيـة الطبيـة المصريـة أقامت حفـلا لتكريم نجيب محفوظ رأسه الدكتور سليمان عزمى باشا وتحدث فيه كما تحدث فى حفل سميراميس من قبل عن ذكرياته منذ خلف نجيب محفوظ فى مستشفى السـويس ثم تحـدث الدكتـور على حسين شعبان عن الأثر العلمى لنجيب محفوظ فى أمراض النساء والولادة .

وبقى الدكتور نجيب محفوظ باشا محاطا بالتقدير والتبجيل طيلة حياته وبعد وفاته (١٩٧٢) ، وحين احتفلت نقابة الاطبـاء بيوم الطبيب المصرى لأول مرة (١٩٧٩) وكرم عدد من رواد الطب ، انتهز الرئيس السـادات الفرصـة ، وأهـدى قلادة الجمهورية لاسمى المرحومين الدكتور على باشا ابراهيم والدكتور نجيب باشا محفوظ .

لقى الدكتور نجيب محفوظ من الجمعيات العلمية البريطانية تكريما وراء تكريم ، وكان أول ما نال من شـهاداتهم التقديرية هو دبلوم عضـوية الملكية للاطباء بلندن وهو ما نعبر عنه اليوم بالاختصار MRCP ، وهى شهادة تمنح للاطباء الباطنيين ، وقد منحها الدكتور محفوظ باشا عام١٩٣٢، وبعدها بسنتينمنح زمالة الكلية الملكية للولادة وأمراض النساء وهى تلك الزمالة التى

نعبر منها اختصارا بالحروف F.R.C.O.G وبعدها بعام واحد (١٩٣٥) خلا مكان من الأماكن الخمسة للزمالة الفخرية فى كلية المولدين وأطباء أمراض الاسنان ، فانتخب الدكتور محفوظ لشغل هذا المكان بالاجماع .

وبعد هذا بعامين (١٩٣٧) منحته كلية الأطباء الباطنية زمالتها (وهى درجة أرفع من العضوية التى منحها من قبل ١٩٣٢) وهكذا أصبح نجيب محفوظ يحمل لقبا كما حمل من قبل وفى أثناء الحرب العالمية الثانية منح الدكتور نجيب محفوظ تقديرين علميين بريطانيين آخرين هما العضوية الفخرية للجمعية الطبية البريطانية (١٩٤٢) بلندن .

وبعدها بعام (١٩٤٣) منح الزمالة الفخرية لكلية الجراحين الملكية بانجلترا فى نفس الجلسة التى نال فيها رئيس الوزراء البريطانى الأسمى ونستون تشرشل ذات الدرجة ، ولكن ظروف الحرب تحول بينه وبين تسلم الجائزة فى بريطانيا فتقيم كلية الجراحين الملكية بلندن حفلا بالقاهرة لتكريمه وتسليمه البراءة ويحضر لهذا الغرض السير تيلور الوكيل الأول للكلية .

وبعد ما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها منح نجيب محفوظ الزمالة الفخرية لجمعية الطب الملكية (١٩٤٧) هو والسير الكسندر فلمنج مكتشف البنسلين ، وتعد هذه الزمالة أرفع درجات الطب البريطانى على الاطلاق .

وفى ذات العام (١٩٤٧) منح الزمالة الفخرية للجمعية الملكية لاطباء أمراض النساء والولادة بأدنبرة •

وفى عام ١٩٥٠ كان نجيب محفوظ واحدا من العلماء الذين وقع عليهم اختيار اذاعة لندن للحديث عنهم وعن حياتهم فى سلسلة الأحاديث الاذاعية عن « قادة العلم فى التاريخ » وقد تولى الحديث عنه أستاذ النساء والتوليد بجامعة لندن البروفسور نكسون •

وفى كل تلك المناسبات كانت تقام لنجيب محفوظ باشا الاحتفالات وتلقى الكلمات التى كونت مادة قيمة من تقدير العلماء والزملاء للرجل العظيم •

وعلى الصعيد الدولى خارج بريطانيا نال الدكتور نجيب محفوظ زمالة أكاديمية الطب بنيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية •

وهكذا لقى الدكتور محفوظ كثيرا من التقدير الدولى فى محيط عمله ، ولابد أن نذكر ان اتصاله بالامبراطورية البريطانية وجمعيتها العلمية لأمراض النساء والولادة كان له أكبر الفضل فى ذلك ، وقد ذكر الدكتور محفوظ انه منذ القائه محاضرته عن تمزق الرحم سنة اثنين وأربعين فى افتتاح المؤتمر المئوى •• لم تنقطع عنه الطلبات لالقاء محاضرات فى الخارج •• وقد

انتدب الدكتور محفوظ أكثر من عشرين مرة لالقاء محاضرات الدراسات العليا فى لندن وآكسفورد وأدنبرة وجنيف ولوزان . وكان فى كل هذا حريصا على الاتقان ، واضفاء الاحترام على بحوثه وشخصه ، وقد طور من محاضراته وأعد معها الأفلام السينمائية الملونة الناطقة التى تشرح العمليات التى ابتكرها .

والى جانب الزيارات التى ذهب فيها نجيب محفوظ الى بريطانيا يتسلم الشهادات الفخرية التى منحها ، فقد قام بعدة زيارات علمية هامة .

أولها حين دعى فى (أغسطس ١٩٣٢) ليفتتح محاضرات النساء والولادة فى المؤتمر المئوى للجمعية الطبية البريطانية بمحاضرته عن تمزق الرحم وقت الولادة وقد عقب رئيس ذلك المؤتمر على محاضرته بقوله « ان البحث الذى ألقاه علينا محفوظ اليوم جدير بأن يعدل معلوماتنا عن تمزق الرحم ويقلبها رأسا على عقب ، وأرى أنه مصيب فى كل ما أبداه ، وجدير بقادة الرأى فى فن الولادة أن يتولوا المناقشة فى هذا الموضوع الهام » .

ثم قام بعده السير ماكلين والسير هربرت سبنسر والسيدة لويز ماكلورى وغيرهم وأيدوا الرئيس فى قوله وانتهزوا هذه الفرصة فضاعفوا الثناء الوافر على كلية الطب المصرية وعلى قادة

التعليم فيها . ولعل هذه الزيارة كانت فاتحة عهد نجيب محفوظ بالمجتمع الدولى اذ أعطته تقديرا خاصا كما قرر هو بنفسه فى موضع سابق ، وقد انتدب أكثر من عشرين مرة لالقاء محاضرات على طلبة الدراسات العليا فى لندن وأكسفورد وأدنبرة وجنيف ولوزان .

وفى عام سبعة وثلاثين (١٩٣٧) ألقى نجيب محفوظ سلسلة من المحاضرات فى كلية الدراسات العليا لأمراض النساء والولادة بجامعة لندن ، وهى المحاضرات التى قال عنها عميد الكلية يومها انها خير ما ألقى فى الكلية .

وفى عام ستة وخمسين (١٩٥٦) ألقى عالمنا محاضرة فلتشرشو التذكارية لذلك العام فى الكلية الملكية لأمراض النساء والولادة بلندن .

وبعد عامين (١٩٥٨) ألقى محاضرة تذكارية فى كلية طب لندن شرح فيها ثلاث جراحات من ابتكاره وأعقبها بأفلام سينمائية ملونة عن هذه العمليات .

على أن علاقة نجيب محفوظ بالامبراطورية البريطانية ، لا ينبغى أن تترك هكذا يتلمس القارىء فى ثنايا الكتاب أن نجيب محفوظ كان صديقهم ، وأنه ولد امرأة السفير ثلاث مرات، وأنه كان يعالج زوجات ضباطهم وجنودهم فى الحرب العالمية مجانا ، وأنه كان يحظى بتقدير الأوساط العلمية والطبية هناك ،

وأنه منح الزمالة فالزمالة ، فيظن ما قد يظن من أن الرجل كان فى أحضان هؤلاء .. انما ينبغى على الضمير الحى أن يقود القلم الى تسجيل الحقيقة فى أمر هـذا الموقف، من أن نجيب محفوظ كان رجلا وطنيا ، وأنه كان له من المواقف فى صـدر شبابه ، مع الانجليز ، ما جعل أحد كبار رجالهم يقدر موقفه الوطنى ويقول له : لو تصرف كل مصرى فى اختصاصـه ، كما تصرفت أنت لمـا بقى فى بريطانيا مسوغ للبقاء فى مصر أربعا وعشرين ساعة .

هل لنا بعد هـذا أن نتعرف على شخص نجيب محفوظ وخلقـه وحياته الاجتماعيـة أما عن خلقـه فقد كان طويل القامة ، ضـامر اليدين ، فى قسماته رحمـة ، وفى عينيه ذكاء ، وعلى شـفتيه ابتسامـة ألفهـا وألفته حتى لا يفترقـان ، فى صوته حنان ورقة ، ورحمـة وانسانية ، وكان يؤمن أن حياته تتجدد كل يوم وهو يرى طفلا وليدا يصرخ فى يده ، وكانت أسعد أوقاته وهو يمر على مريضاته فى المستشفى القبطى .

تزوج الدكتور نجيب محفوظ زوجتـه السيدة فائقة وكان عمرها يومئذ خمسة عشر عاما وكانت للدكتور نجيب محفوظ ثلاث بنات هن السيدات المرحومة ايزيس وقد تزوجت الأستاذ حلمى مكرم عبيد والمرحومة روحية والسيدة سميرة حرم الأستاذ ماهر أبادير يوسف..واتيح للدكتور محفوظ أن يرى أحفاده ، وأن يربى بعضهم ، وأن يكون له من هؤلاء الأحفاد بعض الاطبـاء

الذين يشاركونه العمل فى حجرات العمليات ، كأنما هو تعويض من الله عن فقد الابن ، وقد كان للدكتور نجيب محفوظ من الأحفاد ثمانية وثلاث ، وكان من أحفاده الاطباء فى حياته طبيبان ساعداه فى عملياته . هذا وقد توفيت زوجته فى حياته ، وعاش نجيب محفوظ متمتعا بحنان بناته ، حتى توفى عام اثنين وسبعين وتسعمائة وألف (١٩٧٢) .

وقد عمر الدكتور نجيب محفوظ كثيرا ، وقد يكون أكثر أطباء عصره امتداد عمر ، وقد تمتع طوال هذا العمر بصحة جيدة ، ولم يكن الدكتور نجيب محفوظ حفيا (بطول) عمره ! ، وان كان سعيدا بذلك وكان يتساءل : لماذا يريد الناس أن يطيلوا أعمارهم ؟ « أنا شخصيا أعتقد أن عمر الانسان لا يحسب بالسنوات بل بقيمة العمل المنتج الذى أداه للانسانية » .

الباب الثاني

شخصية نجيب محفوظ

كان العمل هو السبيل الأول بل الأوحد لبناء المجد فى رأى الدكتور نجيب محفوظ ، وفى تجربته من قبل رأيه ، ولهذا نجده فى حديثه الى الشباب يركز على هذه النقطة « وعليهم أن يعملوا جاهدين ، ولا يهينوا فى سلوك الطريق المستقيم مهما يلقوا من مشقة وعنت ، وليقاوموا كل ما يصادفهم من المغريات ومزالق الاخلاق »

آمن الدكتور نجيب محفوظ بقيمة العمل الهادىء ، ومع أنه لم يكن بعيدا عن الأضواء بعد الرهبان ، الا أنها كانت قريبة منه ، ولعل مرد ذلك كان الى ايمانه الشديد « أن النجاح القائم على الشهرة الزائفة والتهريج المصنوع نجاح كاذب لا ترضى به النفوس الكريمة » .

نعم كانت للدكتور نجيب محفوظ نفس كريمة أبت عليه مرارا أن يستغل نجاحاته المثالية ، أو التقدير العالمى المتكرر أو جراحاته المبتكرة أو مؤلفاته الضافية أو أطلسه العظيم أو متحفه الأعظم فى تصعيد المواقف الرنانة واحراز الشهرات على ألسنة الجمهور ، ولقد كان فى حياة الدكتور نجيب محفوظ فرص

لو وزعت على ثلاثين من أطباء الجيل التالى ليحققوا بها العبقرية على ألسـنة الجمهور لكفاهم ، ولكن ما كفى نجيب محفوظ وأرضى نفسه الكريمـة أنه كان على ألسنة الناس جميعا خير طبيب اكلينكى ، وكان على ألسنة العلمـاء والاطباء والتلامذة والزملاء فى العالم أجمع ما كان من قدرة علمية فائقة ، وتاريخ بحث وابتكار مشرف .

وهذه المقدرة التى أوتيتها نفس نجيب محفوظ بالرضـا بهذين المجدين على هذا النحو المنفصل هى بلاشك قدرة لا تتأتى الا للنفوس الكريمة .

كان عالمنـا الكبير أبعد ما يكون عن الغرور لا عن خلق وتربية وكرم نفس فحسب لكنه مع ذلك ابتعاد محسوب عقلانيا واجتماعيا وعباراته فى ذلك حين يتحدث الى الجيل الجديد أبلغ ما تكون فى التعبير عن هذا المعنى .

اكتمال الشخصية :

على أن صفة الاكتمال اكتمال الشخصية فى شخص هـذا العالم كانت من الوضـوح الشديد بحيث لم تخف على معاصريه ولا على غيرهم ، ولم يكن من الصعب اكتشافها لعارفيه ولا على غيرهم كذلك ، وقد عبر عن هـذه الصفة بعبارات رائعـة الدكتور سرور بك حين وصف الكمال فى مجموعة نماذج متحف

محفوظ باشا ثم قال فى وصفها « وقد بدأت كاملة واستمرت كاملة وستبقى كاملة طول حياته الطويلة العامرة . وهـذا مثل نادر جدا لبقاء قوة الفكرة وبقاء قوة تنفيذها حتى اتمام المراد وبلوغ الهدف .

وهـذا البقاء للفكرة وللتنفيذ حتى النهاية من مظـاهر (الدماغ) كامل التكوين ، ممتـاز الصفات ، وهذا هو التفسير الخلقى لوصول نجيب محفوظ حد الكمال فى كل مظاهر حياة الرجل العـالم العامل ، فهو الابن الكامل ، والتلميذ الكامل ، والطبيب الكامـل ، ثم الجراح الكامل ، والزميل الكامـل ، والباحث الكامـل ، والمضيف الكامل ، والجليس الكامـل ، والأديب الكامل ، وهو أيضا اذا دعا الداعى الخصم الكامل . وأقر كل هذا عن خبرة شخصية طويلة مستمرة » .

الاســـتقامة

وقد عاش حياته مستقيما ، وقد يكون فى الامكان ارجاع الاستقامة عند أمثاله الى أنه لم يكن عنده وقت لغير الاستقامة ، وقد يكون هـذا صحيحا ، ولكن الذى لا يقل عنه صحة ، أن فرص الطريق البديل للاستقامة فى مثل حالته كانت موجودة . وكانت مغرية ، بل ربما كانت دافعة بقوة الى هـذا الطريق مع سهولتها ، وصعوبة الابتعاد عنها (!!) واذن فلابد من البحث عن أســاس خلقى متين كان وراء حفاظ الرجل على نفسه فى

السبيل السوى ، « والقارىء لسفر تربيته لا يتعجب من ذلك »، ويكفى هنا أن نستمع معه الى قول والدته التى كانت لا تفتأ تردده على مسامعه « اياك يا نجيب حين تكبر أن تمشى فى الطريق المعوج .. (وحاسب) من الهفوة الأولى واعلم بان الفارق بين الطريق المستقيم والطريق الاعوج شعرة لا تكاد ترى فى أول الأمر ، ومع التمادى فى الطريق الاعوج تجد نفسك قد سقطت السقطة التى لا تقوم منها » .. كانت هـذه الأقوال قد أصبحت جزءا من كيانه الاخلاقى ، ولكنه مع ذلك يبحث لنفسه بنفسه عن آثار السلوك السوى فى الحياة الاجتماعية فينتهى الى قوله « ولا أرانى أغلو حين أقول باجمال انى حين أتتبع من زلت بهم القدم فى سلوكهم الاجتماعى والاخلاقى ، أجد أن كثيرا منهم خاب مسعاه ، وأن الحيدة عن الطريق القويم تركت فى حياتهم أسوأ الأثر ، فان من لم يخفق منهم كل الاخفاق ، تخلف عن ركب الطبيعة ، ولم يبلغ قمة المجد » .

امانـة الأعـراض :

ولا يجد الدكتور نجيب محفوظ حرجا أن يخصص من كتابه « حياة طبيب » فقرات طوال أقرب الى الصراحة منهـا الى التحفظ ، ولكنها مع ذلك لا تجرح المجروحين « أصـلا » ، يروى فيها كيف ملك قياد نفسـه ، وأخذها بالحزم ، وكيف تخيل بشاعة الجرم الخـلقى الذى يقترفـه طبيب استؤمن على

الأعراض ، وأخلد اليه الناس بالثقة ... ثم يقول : « والطبيب الذى يخون أمانة الأعراض لابد من أن يفتضح أمره وتسوء سمعته ويتحاشاه النـاس ، فلا خفى الا ويظهر ، ولا مكنون الا ويستعلن » .

المواظبـــة :

ومن أهم العوامل التى ساعدت عالمنا الجليل على النجاح العظيم الذى أحرزه فى عمله وحياته ان كان من أشد الناس الذين يعملون على تطبيق الأثر « لا تؤجل عمل اليوم الى الغد » وكان نجيب محفوظ يأخذ نفسه بهذا الخلق بشدة ، ويأخذ به من حوله ، حتى ولو كلفه ذلك راحته ووقته وأشياء أخرى ، وقد ذكر فى كتابه قصـة السيدة التى جاءته ليلة سفره الى أوروبا . وكانت تلزمها جراحة ناسوربولى ، وكان فى وسعه أن يتركهـا فى المستشفى حتى يعود وبخاصـة أنه قد نظم مواعيده فى سفره بالساعة واليوم ، ولكن الواجب لم يتح لنجيب أن يلجأ الى مثل هذا الحل الذى كان فيه نوع من التأجيل .

قيمـــة الوقت :

وكان هــذا الخلق فيه فى دراســته ، وهو الذى اختصر سنوات دراسته الثانوية الى ثلاث بدلا من خمس ، وكان يأخذ به زملاؤه ، كانوا فى السنة الثانية ولم يبق الا أشهر على الامتحان

وذهب نجيب لزيارة ثلاثة من زملائه فوجدهم يلعبون النرد ، فدهش ، فأخبروه أنهم قرروا عدم دخول الامتحان لانهم لم يتموا التشريح بعد ، فعرض عليهم أن يقوم بتشريح الجثة كاملة لهم فى ثلاثة أسابيع وأخذ يصطحبهم الى المدرسة فيقضون فيها الليل بالاضافة الى ما يتيسر من النهار حتى استطاعوا أن يتموا التشريح ، وحدث هذا فى السنة الثالثة عندما وجد خمسة من زملائه قد اعتزموا تأجيل الجراحة ، فنهاهم وعرض عليهم أن يلخص لهم دروس الجراحة كاملة فان راقهم دخول الامتحان بعد ذلك فعلوا ، « وكنت أذهب معهم الى احدى الحجر المعدة لنوم الطلاب ، فنضع سريرا وسط الحجرة وحوله خمسة كراسى ، وأضطجع أنا على وسادة السرير وأضع على عينى رباطا حتى لا يشغلنى النظر ، فاذا أجلس الرفاق حولى • شرعت ألقى دروس الجراحة ساعتين فى الصبح ومثلها بعد الظهر ، ودام ذلك أسبوعين ، ودخلنا الامتحان • فنجحنا جميعا » •

هكذا كان نجيب الطالب أبعد ما يكون عن الانانية ، بل أقرب ما يكون الى الحرص على نجاة زملائه معه •

التواضـــع :

تمتع الدكتور نجيب محفوظ بخلق رفيع ، كان أبرز ما فيه التواضع ، وكثيرا ما يكون التواضـــع تمثيلا ، وكثيرا ما يكون هروبا ، وكثيرا ما يكون طمعا ، ولكن تواضـــع نجيب محفوظ

كان تعبيرا صادقا عن ذلك الشعور الذى يجتاح العلماء الذين هم فى الحقيقة طلاب علم ، يحسون كلما ازداد علمهم بازدياد ما لا يعلمون ، فلا يزداد عندهم الاعتزاز بما علموا أو عملوا . وانما يزداد عندهم التواضع ، وكلما ازدادوا تواضعا ازدادوا ارتفاعا فى أعين الناس وفى نظر التاريخ .

لا تشغله الطوارىء عن البحث الهادىء :

ثم كان فيه خلق المواظبة على العمل ، المواظبة التى لا نعرف كما قلت منذ فقرتين تأجيل عمـل اليوم الى الغد ، ولا عمل الساعة الى التى تليها . ومع أن طبيعة عمل طبيب النساء والولادة تقتضى أن يكون دائما على أهبة الاستعداد ، فقد كان نجيب محفوظ يستطيع أن يمارس مع هـذا أدوارا من حياة العلم الهادىء كالدرس والبحث وصـياغة نتائج بحوثـه والتأليف والتأريخ للتعليم الطبى الحديث والطب النسوى القديم .

روح الاتقـان :

وكانت فى نجيب محفوظ قبل كل ذلك روح الاتقان ، وقد لا نستطيع القول بأنه كان أمهر الناس ولا أذكاهم ولا أسرعهم تصرفا ، ولكنك تستطيع أن تقول أنه كان من أكثر الناس اتقانا لعمله ، ولهـذا فانه اسـتطاع أن يطور عـددا لا بأس به من التكنيكات فى أمراض النساء الولادة بفضل اتقانه فى عمليـات

متكررة لسنوات طوال ، فقد أدخل فى عـام (١٩٠٨) بعض التعديلات والتحسينات علىعملية الكسندر آدامز لتقصير الأربطة المبرومة وهى العملية التى ترمى الى علاج حالة انثناء الرحم الى الوراء ، كما سجل أيضا الاخطاء الفنية فى عملية لوسن تيت ، وابتكر جراحة لاصلاح هـذه الاخطاء . وله فى هـذا الصدد جملة جميلة معبرة : « ولى كلمـة أقولها للذين وصلوا بجهادهم الى ما صبوا اليه من منزلة عالية ، تلك هى أن يحذروا الغرور الذى يفسد عليهم ما أصابوه من فوز ، فما من صفة يتعرض صاحبها للمقت أدهى من صفة الغرور » .

سلسلة من النضـال :

لم تكن ظروف حياة نجيب محفوظ بالظروف المثالية ، وانما اعتورتها فى أغلب أحيانها ظروف صعبة ، ولم يكن عالمنا مستاء من تلك الظروف الصعبة التى أحاطت به فى حياته ، بل كان سعيدا بهذا الذى آتاه به الله .

« وانى لأجاهر بأن حياتى كلها كانت بعد وفاة أبى سلسلة نضال .. ولم يكن ذلك شرا محضـا بل لقد كان له أجمل الأثر فى تكوين خلقى ، وترويضى على مجابهة الأرزاء واحتمال الأعباء ، وقد كافأنى المولى » .

ذب الغيبة عن نفسه :

على أن الدكتور نجيب محفوظ مع هـذا كان حريصا

على الصورة التى تتكون عند الناس عنه ، صحيح أنه لم يكن يسعى الى فرض أخباره وانجازاته ، ولكنه كان لا يرضى أن ينشر عنه ما قد لا يتفق مع طباعه أو آرائه ، وخاصة اذا كان مما يجرح شعور أبناء الوطن العاملين • وفى أخريات حياته (يونيو ١٩٦٦) نشرت احدى الصحف أن السيدة زوجته أمنت على معطف من الفرو النادر لمدة عشرين سنة فى شركة القاهرة للتأمين بمبلغ مائتين وألف من الجنيهات •• وفى اليوم التالى كانت الصحف تنشر تكذيب النبأ ، وتعتذر الصحيفة التى نشرت الخبر للدكتور نجيب محفوظ !!

المثل الأعلى والروحانيات :

وكان فى خلقه شىء من السمو الى المثل الأعلى فى كل تصرف من تصرفاته ، وقد رسم لنفسه صورة هذا المثل الأعلى ، ولكن ذلك لم يمنعه أن يستفيد ذات مرة من عبارة شعبية بليغة (دعت له بها احدى مريضاته) فقالت « ربنا يجعل فى وشك جوهرة ، وفى فمك سكرة » قال الدكتور محفوظ : فسرتنى هذه (الدعوة) وأغرورقت عينى بالدموع وحرصت طول حياتى على أن يكون وجهى طلقا ولسانى حلوا فى مخاطبة الناس تحقيقا لدعوة تلك السيدة المسكينة التى عبرت بدعوتها تلك عن شعور الرضا وعرفان الجميل » •

هكذا كانت الروحانيات تأخذ مكانا مرموقا فى تكوين

تفكيره الدنيوى ، ومن ذلك أنه ظل يحتفظ بســاعة والدتــه وسلسلتها الذهبية حتى آخر أيام حياته .

حب الجمهــور :

تمتع نجيب محفوظ بحب وطنى عميق ، وكيف لا وهو رجل أنقذ كثيرا من سيدات هــذا الوطن ، خرج كثير من أطفاله على يديه الى الحياة ، وانتشرت تسمية كثيرين من المواليد على اسمه ، لا فرق بين المسلمين والمسيحيين فى هذا ، ولعل من أشهر المســلمين الذين يحملون اســمه : كاتبنــا العظيم الأســتاذ نجيب محفوظ .

القــدوة :

على أن الأعمق من مجرد التسمى باســمه هو اتخــاذه مثلا أعلى ، وقد حدث هــذا كثيرا ، ولعل كثيرين من اطباء النســاء يذكرون أن أملهم أن يكونوا مثل نجيب محفوظ ، ولعل من ألطف القصص قصــة الدكتور مجــدى باشا طبيب النساء نفسه ، وهو يروى لنا ذلك فيقول :

« ترجع أول معرفتى به الى أكثر من ثلاثين سنة عندما حضر لمنزلنا مع اثنين من مساعديه ليجرى جراحة لوالدتى وكانت حالتها تنذر بالخطر فشفيت على يديه وكنت متعلقــا بها تعلقا شديدا فطفح قلبى بحبه وعرفان جميله وآليت على نفسى أن

أنهج نهجه اذ تمثلت فيه رجل آمالى ، ولم أكن لأعلم وقتها ان هذه ليست سوى أولى أياديه على وأنه سوف يطوق عنقى بمعروف بعد معروف وجميل فوق جميل » •

« تتلمذت بعد ذلك بعشر سنوات على محفوظ باشا بكلية الطب وكنت أجد شغفا عظيما فى حضــور دروســه العلميــة والعملية وأستعذب طريقته فى الشرح والتفسير الى أن بدأت صلتى العملية الوثيقة به عندما ذهبت فى أوائل ســنة ١٩٢٨ لأشــكره على انتخابى نائبا ومسجلا لقســم الولادة وأمراض النســاء بقصر العينى فانه مع كثرة مشاغله فى تلك الســاعة استقبلنى فى الحال وغمرنى بعطفه وتشجيعه » •

الســلام الداخــلى :

كان من أسرار نجاح نجيب محفوظ بلاشك ، ذلك السلام الذى كان بينه وبين نفسه أولا وثانيا ، ثم بينه وبين الناس أولا وثانيا أيضا ، ثم بين الناس الذين من حوله بعضهم وبعض ، نجح بلاشك فى أن يجعل المحيطين به وقد شعروا أنهم عنده ومن حوله فى مكانة لا تدفع ولا تبعث أولا على الالتفاف من حوله فتجدهم كلهم يسعون الى معاونته وتأدية ما يطلبــه منهم بكل سرور واغطباط •

وكان يقال عن نجيب محفوظ انه شخص لا يمكن أن يعاديه أحد ، ولعله أبرز مثل لهذا الصنف من الناس ، الذين يكون

لهم من مقومات شخصياتهم العاملة القوية المحبة للحق مبررات كثيرة للعداءات تتلقاها من الناس ، ولكنهم مع ذلك يستطيعون بفضل هدوئهم ، وعفة لسانهم ، واغضائهم عن ذكر مناقبهم الشخصية ، ومثالب غيرهم (حتى لو كان ذكرها ضروريا للمصلحة العامة) أن يحققوا قدرا من اجتناب العداوات يصعب منه أن تسجل عليهم عداوات بارزة ، ومع هذا فان هذا الخلق لا ينبغى أن يكون من الاخلاق العليا التى يفنى الانسان فى سبيل تحقيقها ، انما محله فى الواقع أن يكون بين ما يحرص عليه الانسان ما استطاع بعد حرصه على قيم الحق والخير والجمال .. قد يكون لنا بالتأكيد أن نفخر لنجيب محفوظ بأنه كان ولا يسكن أن يعاديه أحد ، غير أنه لا يمكننا أن نفخر له أو به اذا كان كل همه فى حياته أن يكون كذلك فحسب !!

الأصول والفروع :

اعتز الدكتور نجيب محفوظ بأصوله كما اعتز بأسرته ، وبادلته أسرته وفروعه اعتزازا باعتزاز ، وقد نقل لنا فى كتابه من حديث الجبرتى عن سلالة أسرته ، واستشهد بعبارات صديقه وديع فرج فى الحديث عن النشاط الخيرى الذى قادته زوجته فى جمعية صديقات الكتاب المقدس التى أنشأتها عام تسعة وثلاثين ، وانشأت من خلالها ست مدارس فى منشية الصدر للبنات ، وفى حدائق القبة للبنين ، وفى ألوايلى ، وفى دير الملاك وفى المليحة .

وفى حلمية الزيتون ، هـذا بالاضافة الى أربع مدارس مماثلة فى الأقاليم ، وما تلا ذلك من انشاء « مؤسسة فائقة محفوظ الصناعية » التى تضم ورشا للبنين يمارسـون فيها التدريب المهنى على النجارة والطباعة والسجاد والآلة الكاتبة ، وورشا للبنات يمارسن فيها التفصيل والخياطة ، والتريكو والتطريز ، والمنتجات الزراعيـة والصناعية والسجاد وقـد بلغت تكاليف مبانى هذه المؤسسة تسعة آلاف من الجنيهات ، وبلغت تكاليف معداتها عشرة آلاف .. وهكذا لم تكن السيدة الا صـورة من زوجها ، عضـوا عاملا نشطا فى الكيان الاجتماعى للمجتمع الذى عاشاه فى وطنهما ، من دون انفصـال ، ولا تباعد . وكانت واترابها من زوجات كبار أطباء ذلك العهد يقدن جميعا مشروعات خيرية نشطة مبرأة عن المفاسد متنافسة ومن دون أن تحس فيها روح ما !

وكذلك كان الحال مع نجله سامى الذى توفى فى شـبابه ، فقد كان من المبرزين فى نشاط الشباب فى أوائل الثلاثينات ، مع مشروع القرش ، وكان نجيب محفوظ يحيل الصحفيين على زميلى ابنه الأستاذين على ومصطفى أمين ليقصـا عليهما طرفا من نشاط ذلك الفتى الذى فارق الحياة فى ريعان شبابه !

الادارى :

لم ينجح الدكتور نجيب محفوظ باشا فى أن يكون واحدا

من أولئك الاداريين القادة ، ولم يكن هـذا لنقص فى قدرات العالم الجليل على النظـام أو التنظيم وانما لنقص على الانتظام مع من لا نظـام لهم ، فقد عمل الدكتور نجيب محفوظ وكيلا بكلية الطب فى عهد الدكتور على باشا ابراهيم طيلة عشر سنوات كان فيها خير مثال « كنائب للعميد » لا « للوكيل » فحسب ، ولم يكن الدكتور نجيب محفوظ بالطبع يعانى من المشـكلات العميقة التى تعودنا عليها فى مسائل الادارة فى مصر ، فقد كان الدكتور على باشا ابراهيم بالطبع يكفيه كل ذلك بما أوتى من قدرة فذة فى شخصيته على كبح جماح أهل السياسة . والتدخلات التنفيذية فى أمور العلم بشتى الوسائل ، وهكذا كانت أمام الدكتور نجيب محفوظ الفرصـة للعمـل الهادىء المستنير فى دعم صروح قصر العينى مدرسة ودراسـة ومستشفى وعلاجا ، على أن الأمر لم يكن هكذا دائما مع الدكتور نجيب محفوظ فقد كان عضـوا بمجلس الجامعة ، ولكنه لم يستطع أن يمضى فى هذه العضـوية بعد بعض المواقف التى وجد نفسه فيهـا عاجزا عن « ايقاف الأمور أن تتجاوز ما هو عدلا أو حقا » ، فاستقال ، هكذا روى « لأسباب يطول شرحها ، وهى لا تتعدى ما كنا نشكوه من ألوان التدخل ، واقحام الرغبات الشخصية ، والخضـوع للاعتبارات التى تجانب العدل والانصاف » ، ومع هذا فقد نجحت مقاومته فى كثير من الأحيان ومن ذلك ما رواه هو نفسه من انه اعترض ذات مرة على تعيين أستاذ مساعد لامراض

النساء والولادة فى قصر العينى ، واشتد فى المعارضة ، وقدم استقالته وكذلك فعل الأستاذان دوبن وشفيق باشا ، وتضـامن معهم البروفسور هنرى وسحبت الحكومة قرارها !!

الوســائل الأخــرى :

ومع هـذا فلم يكن الدكتور نجيب محفوظ بما أوتى من مكانة اجتماعيــة مرموقة يعدم الوســائل الأخرى التى كان يستطيع بها أن يصحح مما يرى فيه الجور على التقاليد الجامعية الأصيلة ، ومن ذلك ما روى هو من أن أحد رؤســاء الوزراء السابقين جومل فى تعيين ابنه فى مركز علمى فى الكلية يفوق المركز الذى عين فيه أوائل دفعته ، لا فى المكانة فحسب ، ولكن فى أنه لا ينبغى الوصول اليه قبل دراسة ثلاث سنوات أخرى على نحو منهجى ، وكان أولئــك الذين عينوه يريدون ارضــاء صاحب الدولة فحسب ، وذهب نجيب محفوظ بنفســه الى صــاحب الدولة الذى اقتنع بصــدق محفوظ وسحب القرار •

ابتعــاد لا بعــد :

واذن فقد كان نجيب محفوظ من أولئك العلمــاء الذين يميلون الى العمل ولكن فى هدوء ، والذين يسعون بعملهم الى المجد ، ولكنهم لا يلهثون وراءه ومثل هؤلاء هم الزاد الذى يبقى لكل أمة تستطيع أن ترشــد أبناءها الصغار اليه فى كل وقت • وفى كل محنة بالذات •

على أن مسألة ابتعاد نجيب محفوظ عن مناصب الدولة العليا ينبغى لها أن تلقى منا مزيدا من الضـوء يبدد الشـكوك التى قد تنشأ فى ظلام تجـاوز الأسئلة الى اجابات عن أسـئلة أخرى ويكفينـا فى هـذا المقال أن ننقل عن الدكتور محمود فاضل سليم (من كتاب نجيب محفوظ ـ كما نعرفه) ما رواه فى قـوله : ولا نفشى سرا اذا قلنـا لكم ان مسـاعى جمـة ومجهودات متوالية بذلت لحمله على قبول منصب من أرفـع مناصب الدولة ولكنه نأى بنفسه عن كل شىء الا العلم ـ واستمر خادما لبلاده وأهلها • بل خادما للانسانية جميعا وانه الرجـل العالم بحق ، لم يعمل لطائفة دون أخرى ولم يميز فريقا على فريق مما حمـل أبنـاء مصر وغـير أبنـاء مصر على ثقتهم به وتقديرهم له » •

وكان فى نجيب محفوظ ذلك الخلق ، الذى يهيىء من الواقع ظروفا مواتية لتحقيق طموحاته ، قد يكون ذلك هو العمـل الهادىء المتخفى من أجـل الهدف ، وقد يكون هو العمـل السامى رغم الصعوبات وقد يكون فيما بين ذلك ، فيما بين المثالية التقيـة ، ولكن الذى لاشك فيه أن نجيب محفوظ نجح فى أن يصوغ حياته مستعينا بما صادفته حياته به •

حتى سـنتى التخـدير اللتين اضطر نجيب محفوظ الى قضائهما ، عمـل فيهما بجد واجتهـاد ، وتعلم الكثير وأتقن

التخـدير ، أو استطاع أن ينتفع بهذه الخبرة فيما بعد ، فكان يخدر لنفسه ، وحتى فى بحوثه فانك تجد روحا كتلك الروح التى نجدها اليوم فى البحوث التى يكون أساتذة التخـدير مشتركين فيها !!

وهكذا ترى أن الاقدار حين تعارض آمال الانسان فهى لا تقضى عليها ، وقد لا يكون ذلك الا خطوة على طريق الآمال نفسها ، تدعمها وتقويها ، وهـذا مثل حى ينبغى أن نضعـه أمام أعين كل من يهيىء له أفقه الضيق وأفق من حوله أن التحول قيد أنملة عن الخط الذى هو فى أغلب الاحيـان غير واضح فى تفكيرهم لمستقبلهم سـوف يذهب بهذا المستقبل كله • ويقول الدكتور نجيب محفوظ نفسه عن السنتين اللتين قضاهما طبيبا للتخدير « وانى لأحمل أجمل الذكرى لهاتين السنتين فقد اكتسبت خلالهما من المعلومات ما كان خير معين لى فيما بعد ، ولم أجد فى عملى صعوبة منذ بدأتـه ، وقد كنت أتقنت التخـدير فى مستشفى السويس » •

الصـدق مع النفس

وكان من أبرز صفات الدكتور نجيب باشا وأهم عوامل نجاحه صدقه مع نفسه ، وكان يطالب الشباب أن يلتزموا الصدق مع أنفسهم قبل الصـدق مع الناس « فلا يحاولوا تبرير عمل

خاطىء باقناع أنفسهم بأنهم على صواب وكان يقول ان أقوى ضروب الشجاعة هى شجاعة المرء فى مواجهـة خطئه والاعتراف به ومحاولة اصلاحه ٠

على أنه ينبغى لنا أن نذكر فى وضـوح أن بعد نجيب محفوظ عن مواقـع المنـاصب الرسـمية لم يكن أبـدا عن سلبية أو مهادنة ! أو امساكا للعصـا من الوسط ، وهو ما قد يظن فى مثل حالة عالم ذكى هادىء مثله ، انما يحدثنا الدكتور سليمان عزمى فى وضـوح وكأنه أدرك ما قد يتراءى للناس من ذلك الظن فيقول : « بقى أمر لا أرى بدا من الاشـارة اليه وهو فضـله الذى لا يمكن أن ينسى فى تقدم كلية الطب لا فى قسم الولادة وأمراض النساء فحسب بل فى الكلية كلها كوحدة ٠ واذا جهل الرأى العام هـذا الفضل فلا نجهله نحن الذين زاملناه فى مجلس المدرسـة وفى مجلس الكلية وفى مجلس الجامعة وفى اللجان العديدة التى كان يعين فيها رئيسا أو عضوا وشاهدنا المواقف الرائعـة التى كان يقفها مدافعا عن الحـق ودافعا الباطل ٠ وكانت له دائما آراء ثاقبة موفقة وضع فيهـا مصلحة العلم فوق كل شىء » ٠

آداب المهنـة :

كان رائـدا فى آداب المهنـة بلاشـك ، والدكتـور مصطفى فهمى سرور يحدثنا أنه كان يشع وقارا ومراعاة لاحساس

المرأة فى ذلك الوقت فكان شديد الحرص على الا يكشف من الجسم ما لا داعى لكشفه • وهو أول من درس آداب الكشف الطبى لطالب الطب •

ولما كنا نقف على بوابة قصر العينى لانتظار الدكتور محفوظ كنا نتراهن على سبقه بالتحية فلم يكسب منا أحد هذا الرهان اذ كان نجيب سابقا أبدا بالتحية لتلاميذه •

البــاب الثــالث

نجيب محفوظ عالمـا وطبيبا

كان الدكتور نجيب محفوظ عصاميا بلاشك ، وقد لايكون أعمق العصاميين عصامية ، ولكنه مع هـذا عصامى فى مجده ، عصـامى فى كل خطواته ، عصامى فى عمله ، ولعل هـذه أبرز الصفات التى ينبغى لنا أن نقف عندها بالتأمل ، ذلك أن محفوظ يمثل لنا ذلك النوع من المواطنين الوطنيين الذين لا يتـاح لهم ذلك الاتصال بالحضـارة الا على أرض بلادهم ، وهم مع هذا ينقلون بلادهم فى مجـال ما الى مستوى الحضارات السابقة بعمل دءوب على أرض بلادهم •• ومع كل التقدير لأهل البعثات وأصحابها ومرسليها وباعثيها يبقى تقدير أعمق للذين يحفرون فى الصخر حتى يصـلوا الى الكنوز ، الكنوز التى فى نفوسهم ذاتهـا ، وأحب هنا أن أترك القـارىء مع عبـارات الدكتور المنياوى باشا زميل نجيب محفوظ وهو يلقى الضوء على هـذه النقطة من مفهوم آخر لا يبعد كثيرا عن فكرنا الأعم فيقول :

« ويمتاز محفوظ عن غيره من النوابغ الذين يجب السير على منهاجهم بأن نبوغه كان نبوغا ذاتيا لا فضل لأى شخص فيه، فقد توفى والده وهو صغير السن فاعتمد على نفسه فى تثقيف شخصه فى العلوم الدراسية الثانوية وليس له من مشير غير جده

واجتهاده واعتماده على شخصيته ومتانة أخلاقه وهو لايزال بعد فى طور الشباب • ثم نجح نجاحا باهرا فى مدرسة الطب حتى ان مصلحة الصحة انتخبته طبيبا ثانيا لمستشفى السويس وهو مركز لا يصل اليه الا أوائل الناجحين بعد تدريبهم تدريبا كافيا ولم يمكث سنة واحدة هناك حتى ظهرت كفاءته الممتازة وانتخب مساعدا لقسم أمراض النساء بقصر العينى وكان هو وحده الذى يدير هذا القسم اذ لم يكن له رئيس • وكانت العمليات تعمل باتحاده مع رؤساء أقسام الجراحة الانجليز • وهنا ظهر نبوغه الذاتى لأنه فى خلال السنوات التى اشتغل فيها وحده قبل حضور الأستاذ دوبين كان يتدرب على دراسة علوم أمراض النساء والولادة تدريبا وافيا غير معتمد على معلم أو مستشار بل كان كل اعتماده على التنقيب العلمى فى الكتب والمجلات وعلى الملاحظات الاكلينيكية يدرسها بجانب أسرة المرضى وفى غرف العمليات •

ولما حضر دوبين وكان من أساتذة علمه فى ايرلاندة وجد محفوظا مستكملا كل مؤهلات العلم الذى جاء ليدرسه وفوق ذلك لاحظ أن له (يدين) لم يكن له عهد برؤية مثلهما فى البراعة فى غيره من أساطين الجراحين • وما كادت تمر سنة واحدة حتى التهم محفوظ كل ما وجده فى جعبة دوبين من العلم الحديث وصار فى لمح البصر كفء له وقرينا يعتمد عليه ولم ترعينى ولم

تســمع أذنى عن شخصيتين كانتا يحبان بعضهمــا ويحترمان شخصيهما كما كان دوين ومحفوظ •

والدليل الآخر على نبوغه الذاتى هو تفوقه على معاصريه فى عمله بدون أن يسعى الى بلاد العالم فى أوروبا وفى أمريكا وبدون أن يقضى سنين عديدة طالبا هنــاك كما فعل غيره من أساتذة القصر العينى ولكنه درس علمه بنفسه ولم يكن يضيع دقيقة من وقته فى غير بحث مرضــاه واستكشاف ما استعصى عليه وعلى غيره فيما بين أسرة المرضى وغرف العمليــات ومتاحف علم الأمراض • وقد درس علم الباثولوجى وشيد متحفا يفخر على متاحف العالم أجمع فى المجموعات التى يحتوى عليها من شتى أنواع الولادات والأمراض النسائية وكان فى ذلك معلم نفسه ومدرب شخصه الأوحد مستفيدا من كل من جاوره من أساتذة للباثولوجيا ومساعدين وغيرهم بقدر ما تسمح له أوقاته ومعلومات هؤلاء ولكن جل اعتماده كان على نظرات عينيه الثاقبة وسرعة خاطره فى البحث والاستكشاف والاقتباس الصحيح من كل ما يراه ولذلك جاء متحفه متحفا تعجز المتاحف التى يديرها أعظم الاخصائيين فى علم الباثولوجيا عن اعداد مثله •

كان نجيب محفوظ عالمــا وطنيا من أولئك الذين اتيح لهم أن تكون آراؤهم العلمية محل احترام الأوساط الدولية ، وهى حظوة تتأتى مع الجهد الدءوب والملاحظــة الذكية ثم بالاتصال

مع هـذه الهيئات ونشر الآراء على أهلهـا ، ويروى الدكتور محمود فاضل سليم أنه حين كان يطـالع كتاب « فكتوربونى Victor Bonney » عن « الشاذ فى الولادة » رأيته يذكر أن محفوظ هو من أوائل الجراحين الذين أثبتوا الضرر الفاضح فى اجراء عمليـات جراحية لمرضى وهم فى حالة صدمة shock وأنه من أوائل الذين أشاروا بنقل الدم نقطة نقطة فى معالجـة الأنزفة وأن الحرب العالمية الأخيرة حققت آراءه وملاحظاته فى هذا الشأن وأثبتت صـواب ما أشار به وأنقذت أرواح الكثيرين ممن كانوا لا يرجى لهم شفاء » •

تمثلت روح العالم الدءوب فى نجيب محفوظ ، خير تمثيل ، لم يكن البحث العلمى فى الطب الاكلينيكى يومها قد تطور الى مراحل نشـهدها اليوم ، ولكن نجيب محفوظ كان فى البحث العلمى على نفس المستوى من المهارة الاكلينيكية التى صاغها • وتتضح فى بحوث نجيب محفوظ صفة « الفرديـة » بشـكل واضح ، وقد لا يكون فى هـذا ما يعيب ، ولكن الذى يضاف اليه فى هـذا الشأن أنه كان فى بحوثه حلقة بين البحوث السابقة عليه واللاحقة له •

ولايمكن لنا أن ندعى أن محفوظ قد استطاع أن يؤسس مدرسة بحثية تواصـل العمل فى قضايا معينة من بعده ، ولكننا لا نستطيع أن نلقى على عاتقه بكل الذنب فى هـذا • ويحدثنا

زميله الدكتور محمود بك اسماعيل عن هـذه الناحية فيقول : « أما محفوظ البحاثة فحـدث عنه ولا حرج فهو لا يمل كثرة الاطلاع ولا يكل من التنقيب مسايرا الزمن فى أبحاثه وتآليفه • كثيرا ما كنت أدخل عليه فى مكتبه فاذا به وسط كومة من الكتب والمجلات والمراجع لا يكاد يظهر بينها يقلب هذا ويستشهد بذاك ويدون ما يعن له من آراء • ولن أطيل فى الحديث عن أبحاثه فقد أصبحت منارة لكبار العلماء وكم شـهدوا له بقيمة هذه الأبحاث وكم كرموه من أجلها فكرموا مصرنا العزيزة الناهضة فى شخصه » •

كانت نسـبة من بحـوث محفوظ وكتاباتـه بالطبـع من ذلـك النـوع الـذى يسـمى بالريفيو أو الايديتوريـال Review or Editorial وفى هذا النوع من البحوث يتفاضل العلماء الباحثون أيضا بمقدار سعة اطلاعهم وقدرتهم على انتظام الخبرة العالمية كلها فى مقال واحد •• وهو ما لا يأتى الا للذين هضموا العلم بجزئيـاته وأساسـياته ، وهو ما تحقق لنجيب محفوظ بالفعل •

خـلق الاتقـان :

وليس معنى هذا أنه لم يكن بالرجل المبتكر ، ولكن المعنى أن العنصر البارز وراء ابتكاره ، وأمام ابتكاره أيضا ، كان هو الاتقان ، وقد استطاع الدكتور نجيب محفوظ أن يسجل باسمه عدة عمليات رفيعة المستوى ، فقد ابتكر (١٩٣٢) جراحة لوصل

المثانة بقناة مجرى البول اذا انعدم عنق المثابة بسبب عسر الولادة ، وهى العملية التى اذاع تفاصيلها فى مؤتمر القدس ، كما ابتكر جراحة أخرى لعلاج النواسير التى تكون بين عنق الرحم والمستقيم ، واستطاع أن يتوصل الى زرع الحالب فى المثانة فى نواسير القبوة عن طريق المهبل .. كما سجلت له مراجع أمراض النساء طريقته الخاصة باصلاح المثانة عندما ينعدم جدارها الخلفى ، مع جدار المهبل فى اثر الولادات العسرة .

لم يكن من حظ المؤلف بالطبع أن يكون تلميذا مباشرا لنجيب محفوظ ولكن الأولى به أن ينقل فى الحديث عن أستاذيته عن واحد من الذين أدركوه أستاذا ، ثم زاملوه فى التدريس ، ومن هؤلاء الدكتور رشدى اسماعيل الذى يحدثنا عن هذا الجانب من محفوظ باشا فيقول :

« عرفته فى ذلك العهد أستاذا للولادة وأمراض النساء فكان ممتازا فى عمله لبقا فى دروسه ، عذبا فى محاضراته وأحاديثه ، وكان يعهد الى الموضوعات الصعبة فيعرضها علينا فى أسلوب واضح وطريقة قصصية محبوبة فيسهل الصعب ويصل الدرس الى قلوبنا وعقولنا بفضل مهارته فى التدريس وكان يعنى بدروسه التى يلقيها علينا عناية تامة فكان يعتمد فى مادتها على ما يعثر عليه من المراجع الكثيرة مقرونا بما وصل اليه من تجاربه الخاصة وما اهتدى اليه من آراء ويقدم ذلك كله ممتزجا

فى وضــوح ودقة متخذا من الفانوس السحرى أداة لتســهيل الشرح » .

« وكان يحب طلبته ويعنى بأمرهم وهم فى مصر والخارج فيراسلهم ويشجعهم ويوصى أصــدقاءه من الأساتذة الانجليز بهم ويسافر فى الصيف الى انجلترا للاتصــال بهم واسداء النصح لهم وتذليل الصعاب أمامهم فكانوا يجدون من عطفــه عليهم حافزا لهم على الجد والاجتهاد ففازوا جميعا بالنجاح » .

ويتطرق الدكتور رشــدى اسماعيل الى المهارة الجراحية للأستاذ محفوظ ، ونمضى معه حين يقول : وظهرت لى مهارته العلمية والعملية فى كل يوم ساعدته فيه وكل عملية أشرف عليها أو قام بها وأذكر أننى ساعدته مرة فى عملية قيصرية لمريضــة حامل فى الشــهر التاســع وكان عندها هبوط شديد فى القلب فأجرى العملية بنجاح وفى سبع دقائق فقط » .

وساعدته فى كثير من العمليات منها عمليات الناسور البولى المستعصية وكنت أعجب كيف يكون هنــاك أمل فى شفاء المريضة ونجاح العمليــة ، ولكن محفوظ باشا علمنــا الصبر والمثابرة والتضحية وعدم اليأس فى علاج المرضى مهما كلفنا ذلك من التضحية بالصحة والوقت ففى هذه العمليات التى تبدو وكأنها غير قابلة للشفاء كان يثابر على العــلاج من غير يأس أو ضجر .

فاذا لم ينجح فى العملية الأولى عمد الى أخرى فثالثة فرابعة حتى يتم الشفاء . وأذكر مثالا لمهارته ومثابرته أنه أجرى لاحدى الريفيات عملية ناسور بولى اثنتى عشرة مرة ولم يقطع الأمل فى شفائها حتى برئت وتحقق أمله بعد هذا الجهد والعناء . أما المجهود البدنى والذهنى اللذان هما من مستلزمات جراحة النواسير البولية فلا يجهلهما أحد من الذين كابدوا عملها » .

وسوف نستعرض فى الفقرات التالية آراء العلماء البريطانيين الكبار فى شخص نجيب محفوظ وعلمه وفضله على فرع تخصصه ، وهو كلام لا يلقى على عواهنه مهما يكن فيه من قدر من المجاملة لفيف لهم يكرمونه .

فاللورد دوس أون رئيس كلية الاطباء الباطنيين الملكية يكرم محفوظ باشا فى الحفل الذى اقيم بمناسبة منحه الزمالة الفخرية لكلية أطباء النساء والولادة ويقول : « أرجو أن تسمحوا لى أن أتكلم عن محفوظ من الوجهة الاخلاقية اذ أن مكانته العلمية الممتازة التى رفعته الى أسمى مركز يطمع فيه عالم من العلماء معروفة لكم جميعا : ان دماثته ومتانة أخلاقه كانتا من أهم الأسباب التى أدت الى رفع سمعة كلية الطب المصرية الى المستوى العالى الذى بلغته فى السنين الأخيرة ، وأريد أن ألفت النظر بصفة خاصة الى هدوئه الطبيعى وتواضعه وهربه من الشهرة وهى الصفات التى يمتاز بها العالم الحقيقى ،

ولمحفوظ وقفات مشرفة فى الدفـاع عن الحق فى أوقات كانت فيها كلية الطب المصرية فى ظروف حرجة جدا وكانت تلك الوقفات من محفوظ من أهم العوامل التى أبقت على المدرسـة سمعتها الطبية • وانى من صميم فؤادى أهنىء كلية المولدين وأطبـاء أمراض النساء بلندن لأنها عرفت كيف تقدر كفاءة الرجل النافع بمنحها اياه أكبر شرف تستطيع أن تمنحه وهو زمالتها الفخرية التى لم تمنحها قبل الآن الا لأربعة من علماء العالم الممتازين » •

والدكتور جيمس ينج عميد كلية الدراسات العليا لأمراض النساء والولادة فى جامعة لندن يعقب على محاضرات الدكتور محفوظ فى الكلية عام (١٩٣٧) فيقول : « اعتادت جامعة لندن أن تدعو من وقت لآخر عالمـا من الذين امتازوا فى فرع من فروع الطب من ممالك العالم المختلفة لينشروا آراءهم على العـالم الطبى البريطـانى وقد وقع الاختيار فى فن أمراض النسـاء والولادة على العـالم المصرى الفذ محفوظ باشا وقد سمعتم ما أتحفنا به هـذا الخطيب اللبق من الأبحاث معدومة النظير وأظن أنكم جميعا توافقوننى على أن محاضراته كانت على جانب عظيم من الأهمية ، ويسرنى اليوم بصفتى عميدا لكلية الدراسات العليا أن أقرر أنه لم تلق من فوق هـذا المنبر محاضرات أعظم فائدة ولا أخطر شأنا من المحاضرات التى ألقاها علينا محفوظ باشا من يوم أن أنشئت هـذه الكلية الى اليوم ، ولا أظن أنه

يوجد طبيب فى العالم حاز الخبرة التى حازها محفوظ باشا ، ولو سلمنا جدلا بامكان ذلك فأنا على يقين من أنه لم يوجد شخص آخر استطاع أن ينتفع بخبرته وان يبلغها للعالم الطبى بمثل المقدرة التى أظهرها محفوظ ، وفى ذات الجلسة يتحدث السير هربرت سبنسر أحد علماء الطب المشهورين وأستاذ الولادة فى جامعة لندن فيقول : « أنا رجل مسن بلغت من العمر ثمانين عاما وتركت الاشتغال بالطب منذ احدى عشرة سنة ولكنى لما علمت أن محفوظ باشا سيحاضرنا اليوم لم أستطع مقاومة الرغبة الملحة التى أرغمتنى بالرغم من ضعف صحتى على الحضور اليوم . اننى منذ خمس سنوات تقريبا سمعت لأول مرة محاضرة محفوظ باشا فى العيد المئوى للاتحاد الطبى البريطانى وكان شعورى وقتئذ شعور الرجل الذى اكتشف كنزا عظيما . وهذا هو نفس الشعور الذى أشعر به اليوم » .

أما السير كومينز باركلى الذى كان يتولى الاشراف على نشر مجلة أمراض النساء والولادة فيقرر « أنه لا يذكر أن بحوثا أخرى نشرت بالمجلة نالت اعجاب وتقدير الاطباء مثل ما نالت أبحاث محفوظ باشا وأن معظم المدارس الطبية تطلب منها نسخا كثيرة .

وفى الحفل الذى أقامته كلية الجراحين الملكية فى القاهرة

(١٩٤٣) خصيصا لتسليم الدكتور نجيب محفوظ زمالتها الفخرية بعد ما تعذر سفره للندن لتسلم الجائزة ، خطب السير جوردون تيلور الوكيل الأول للكلية فقال : « ان هذا اليوم يوم مشهود ، يوم تاريخى ، اذ تتقدم فيه كلية الجراحين الملكية بانجلترا أكبر شرف فى استطاعتها أن تقدمه وهو زمالتها الفخرية الى أكبر طبيب فى أمراض النساء والولادة بلغ قمة الشهرة فى فنه ، وقد راعت الكلية فى تقديم هذه الزمالة الدرجة العلمية الممتازة التى يحتلها محفوظ باشا لا فى مصر وانجلترا وحدهما بل فى العالم أجمع » •

وقرظت مجلة « اللانست » أطلسه فوصفته بأنه : « أعظم مؤلف صدر حتى اليوم فى انجلترا أو أمريكا أو ألمانيا فى هذا العلم ، وهو مؤلف يجب ألا تخلو منه مكتبة متخصصة فى هذا الفرع فى جامعة من الجامعات » •

وفى حديث البروفسور نكسون عبارات كثيرة تستحق التأمل منها : « ان علم الطب لا يعرف حدودا ، ويعود لأمثال نجيب محفوظ باشا الفضل فى تعزيز التفاهم وحسن النية بين مختلف الدول وقد ساهم بنصيب وافر فى التقريب بين الطبين البريطانى والمصرى وستظل مساهمته فى هذا الميدان أمرا خالدا على مر الأيام » •

« واننى أعتقد أن أعظم خدمة أسداها الدكتور محفوظ باشا هى أنه كان فى طليعة المشتغلين بالتوليد وأمراض النساء فى مصر . واليه يعود الفضل الأكبر فى تنبيه الرأى العام الى أهمية العناية بالأم قبل الوضع ومن أهم ما يذكر له ابتكاره عمليات جديدة لشفاء بعض أمراض نسائية لم يكن فى الامكان شفاؤها قبلا » .

وبعد أن منح الدكتور محفوظ زمالة الجمعية الطبية للملكية البريطانية ، أقامت له كلية الجراحين حفلا تحدث فيه السير جونسون حديثا قال فى نهايته : « قد سبق أن قدمنا لمحفوظ باشا أكبر شرف فى طاقة الكلية أن تمنحه هو زمالتها الفخرية التى لم تهد لأكثر من عشرين من عظماء الجراحين واليوم تهديه الكلية احدى النسختين الموجودتين فى العالم من أطلس هنتر للرحم الحامل تقديرا لأبحاثه العلمية الأخيرة » .

وقد أهدى الدكتور محفوظ هذه النسخة من الأطلس النادر الى مكتبة كلية الطب .

وفى حفل الجمعية الملكية ذاتها لتكريم نجيب محفوظ (١٩٤٧) قال السير كاسيدى رئيس الجمعية : « قد راعت الجمعية فى تقديم زمالتها الفخرية الى محفوظ باشا شهرته العالمية التى ذاعت فى أنحاء العالم كله والأبحاث الفذة التى أدت الى

تقدم حقيقى فى فنى أمراض النســاء والولادة ومركزه العلمى المتاز فى العالم الطبى الذى وصل الى قمته » •

ووصف نجيب محفوظ فى هذا الحفل بأنه : أكبر اطبــاء النساء والولادة الذين كانوا على قيد الحياة يومها (ومع هذا مد الله فى عمره ربع قرن بعدها !!) •

ولعل البحث العلمى الدءوب الذى كان من أبرز نشاطات الدكتور محفوظ كان من أقوى الدوافع وراء المكانة الرســمية فى مقاعد العلم الأكاديمية التى سرعان ما احتلها العالم العظيم وفى هــذا يروى الدكتور سليمان عزمى أنه « بعد أن أخذت ميول محفوظ العلمية تؤتى ثمرتها نشر البحث تلو البحث فى معضلات الولادة وأمراض النساء كما انه اسبغ على عملياته آخر ما عرف من الاتقان • ولم يقف بهذه العمليــات على ما هو معلوم فيها بل أضاف اليها (سيلا) من العمليات التى ابتكرها ونسبت اليه وكان ذلك من أكبر الدواعى التى حدت بمجلس المدرسة الى انشاء أستاذية أخرى بجانب الأستاذية التى كان يشغلها الدكتور دوبن وأسندت الى محفوظ وكانت هذه أول أستاذية أسندت الى مصرى فى عهد المدرسة الحديث وقد تخرج على يديه أثناء شغله لها عدد كبير من الاخصائيين فى هذا الفرع تفخر بهم البلاد •

ومما يذكر بالثنـاء لمحفوظ أن عمله الخـارجى الضخم ومسئولياته الجمة فى المستشفى والمدرسـة لم تكن لتمنعه عن مواصـلة البحث العلمى ذلك البحث الذى جعل له اسما بارزا رنانا لا فى مصر فحسب بل فى العالم أجمع •

طبيب النســاء :

وفى الفقرات التالية يقودنا القلم الى الحديث عن الدكتور نجيب محفوظ طبيب أمراض النساء والولادة •

وربما كان الدكتور نجيب محفوظ ـ كما قال تلاميذه عنه فى أواخر حيـاته ـ هو طبيب أمراض النساء الوحيـد الذى يستطيع تحديد حالة الجنين والوقوف على أسراره دون استخدام المنظار • ولعل السبب العلمى وراء ذلك أنه كان فى بدء حياته العلمية فى أوليات هـذا القرن مضطرا لاستغلال كل ذرة من ذكائه وخبرته للاستغناء عن الكشف على المرأة وهو الأمر الذى كانت نساء الجيل المـاضى يرين فيه جرحا لكرامتهن •

وكان الدكتور نجيب محفوظ يؤكد (كما أفاض فى حديثه للسيدة حسن شاه على صفحات جريدة الأخبـار) على حاجة طبيب النساء الى ثقة المرأة حتى ترتاح اليه وتحكى له أسرارها فيصل الى المرض والى العلاج •

وقد تحدثنا فى موضع آخر عن تواضـع الدكتور نجيب

محفوظ ، وعظمـة هـذا التواضـع ، ولكن الأبلغ من هـذا أن تتحدث عن تواضعه فى علمه وخبرته حين قيل له على لسان أحد الصحفيين : « أنت لم تخطىء أبدا فى تشخيص المرض » فقال : هـذا غير صحيح فالطبيب الذى لم يخطىء فى التشخيص لم يولد بعد .

وطلاب الطب يدرسون اليوم فى علم النساء الولادة بابا كبيرا للرعاية التى يجب أن تحظى بها الأم قبل الوضـع ، ولعلهم لا يعلمون أن الدكتور نجيب محفوظ كان من أوائل من نبهوا الى أهمية هذه الدراسة والرعاية على المستوى الدولى .

وامتدت دراسـات الدكتور نجيب محفوظ الى موميـاء الفراعنة ، فاكتشف مرض الناسور البولى فى هذه المومياوات مما دل على براعة اكلينكية وحس علمى مرهف .

الحنكة الاكلينيكية :

وألسنة الناس فى عهد نجيب محفوظ وهو عهد قريب منـا تذكر له كثيرا من النجاحات التى انفرد بها من دون زملائه ، وهذه السلسلة من النجاحات هى بلاشك العامل الأول أو الأثر الأول لتفوقه الاكلينكى ، ومن أمثلتها ما تناقلته وسائل الاعلام حين استطاع علاج حرم السفير العراقى فى مصر (١٩٥٧) وأن تلد على يديه على حين فشل فريق الاطباء المعالجين لها فى لندن من قبل .

تنظيم الأسرة :

ولابد للمرء حين يتناول الحديث عن نجيب محفوظ ، أن يخصص بعضا من الفقرات للحديث عن وجهة نظر عميد أطباء النساء فى تنظيم الأسرة ، وقد كان الرجل لا يكل ولا يمل من أن يعلن أنه ضد الاجهاض ، « وأنه جريمة فى رأيه وأنه لحسن الحظ كذلك فى قانون العقوبات » ومع هذا كان الدكتور نجيب محفوظ يؤيد تنظيم الأسرة بحيث لا تزيد عن ثلاثة أو أربعة .. وسئل عن أحسن وسائل تنظيم الأسرة يومها فقال انها « العجلة الحاجزة » . وسئل عن الحل على المدى الطويل فقال : « انه نشر التربية الجنسية » .

ولا يفوتنا أن نشير هنا للأهمية الى ما قاله الدكتور نجيب محفوظ ذات مرة أن أهم أسباب العقم فى مصر هو « البلهارسيا » .

تقدم التخصص بفضل الرائد الأول :

ولاشك أن الأثر الذى كان للدكتور نجيب محفوظ فى النهوض بعلم أمراض النساء والولادة على المستوى القومى كان أثرا عظيما ، وهذا الأثر العظيم لا يحتاج الى لجان موسعة للاقرار به أو الايمان بمدى عظمته وانما يستطيع كل مواطن عادى أن يلمسه واضحا جليا ظاهرا ، فلاشك أن التقدم

الاكلينيكى عند طبيب النساء والولادة المصرى لا يقل عن مثيله عند أى زميل له فى أى فرع آخر من فروع الطب ولاشك أيضا أن نسبة النبوغ بين أطباء النساء والولادة مرتفعة عنها بين غيرهم ، وهذا واضح ، ولاشـك أن أطباء النسـاء والولادة المصريين يقومون بجهد جبار ليل نهار ، ولاشك أن عندنا عددا كبيرا من أطباء النساء والولادة يعدون من أقطاب النساء والولادة فى العالم وكان الدكتور نجيب محفوظ فى أخريات حياته يقدر عدد هؤلاء الأقطاب المصريين بما لا يقل عن ثلاثين ، ولعلهم لايزالون يتكاثرون .

ويكفى أن نذكر هنا ما جاء على لسـان الدكتور نجيب محفوظ بنفسه اننـا كنا أصحاب الرقم القيـاسى فى الولادة المتعسرة فأصبحنا « بفضـل انشاء العيادات وتعميمها وقـد انخفضت النسبة الى حدودها الدنيا » .

الجبر والاختيـار :

وعلى نحو ما نجد من اخلاق العلماء العاملين نجد الدكتور نجيب محفوظ يؤمن بالاختيار مع تسليمه بالقدر ، وان كان ايمانه بالأخير أقوى ، والسر فى قوة ايمانه بالاختيار يرجع الى عاملين عامل روحى يتمثل فى ايمانه بعدل الله وكمال قدرته ، وعـامل يأتى له من خبرته فى الحياة على نحو عميق وطويل يتيح له أن

يرى رد الفعل الحقيقى وان تمهل ظهوره ، هذه الفلسفة نجدها فى نظرة الدكتور نجيب باشا الى كل الأحداث التى سردها فى كتابه ، ومع هــذا نجدها أيضا واضحة صريحة فى عبارة له فى فصل من فصول كتابه وهو الفصل الذى يحمل عنوان « القدر » حين يذكر عالمنا صراحة أنه « فى قرارة نفسى لا أطمئن الى أن الله الذى ليس لكماله حد ، يعاقب انسانا على شر فرضــه عليه فرضــا ولا حيلة لانسان فيه ، كما لا يثيب آخر على خير لم يكن له فضل فى اختياره » .

ومع هــذا فان الدكتور نجيب محفوظ يلتفت بكل قواه العقلية الى جانب سيكولوجى هام فى مسألة القدر حين يؤكد أن مثل قول الشاعر :

مشيناها خطى كتبت علينــا
ومن كتبت عليه خطى مشاها

ومن كانت منيتــه بــارض
فليس يموت بارض ســواها

هى أقوال تشفى قلوب الثاكلين وتنزل السكينة والطمأنينة على نفوس من يعانون الشدائد ويكابدون الآلام .

سيكولوجية الرضــا :

واضح اذن هنا هذا الفصل الدقيق بين معنيين ينبعان من فلسفة واحــدة لا تتأتى الا للعلمــاء العاملين أو بعبارة أخرى

للمتنورين المجربين ، فالنظرة الى القدر عند طبيبنا الذى بلغ من العمر سنين الحكمة (مرة بعد أخرى) تأخذ بجانب الايمان بالله وقدرته ايمانا بعدله وبرحمته • ثم هى مع هــذا لا تنكر القيمة السيكولوجية التى قد يحققها للناس ــ فى وقت حاجتهم اليها ــ ايمانهم بأن المصــائب قــدر ، فتخفف عنهم آثارها •• وهو تفكير قريب من التفكير الطبى الذى يعالج بالمخــدرات لازالة الآلام ، ولكنه لا يستطيع أن يصفها طوال الوقت •

العفــــاريت :

بعد هذا •• هل لنا أن ننتقل فنشير الى أنه كان من الطريف (ولكن قــد لا يكون من الطريف منا الآن) أن يفرد الدكتور نجيب باشا للحديث عن العفاريت فقرات مطولة من كتابه ، فقد كانت تربيته على يد أبوين متعلمين توحى له أن العفاريت خرافة ليس الا ، وكذلك كانت مدرسة الأمريكان تحرص على تأكيد هذا المعنى ولكن المسألة كان لها جانب آخر ، لعل مصــدره بل ان مصدره هو هاتيك الخادمات ذوات المستوى العقلى المحدود والفراغ الذى لا يملؤه الا مثل هــذا النوع من الأحاديث التى تتناسب بصورة درامية مع فضولهم الذى يحتاج الى درجة عالية الحبكة من الخيال المصنوع أو المطبوع على حد سواء •

وفى معرض حديثــه عن ذكريات الطفولة يقول طبيبنــا « وكانت تسليتنا كل مساء هى الاصغاء الى الحواديت التى كانت

الخادمات ــ فى ذلك الحين ــ يتقن القاءها كل الاتقان ، وكان معظمها يتعلق بالجن والعفاريت ، وكان الاعتقاد سائدا بوجودها « وهنا يستطرد ليقرر » ولكن لا أدرى لمـاذا كنت أنكر ذلك ألبته ، ولا أصـدق وقوع شىء خارق للمـألوف ، فاذا استمعت الى قصص من هـذا القبيل قصدت بسماعه التسلية وتمضية الوقت حتى يحين ميعاد النوم » واذن فهناك طائفة من الاطفـال هم فى الغالب طائفة ذوى المدارك الواسعة يستطيعون آن يأخذوا هذه الخرافات مأخذ الهزل لمجرد التسلية واذن فبوسعنا اذا لم نستطع أن نقضى على هذه الخرافات أن ننمى هذه المدارك .. ولعل مثل هـذه التنمية أكثر عملية من ذلك القضاء .

ويمضى نجيب محفوظ ليروى قصة مجىء أسرة خاله ومعها خدمها لقضاء الصيف « وكان من بين الخدم سيدة فارعة القامة اسمها فجر وجرت بينى وبينها مناقشة حول الجن والعفاريت فادعت أنها رأتهم رأى العين غير مرة ، فعارضتها ، فأغضبها ذلك منى وأسرت فى نفسـها أمرا هـاك تفصـيله : « حـدث انى فى فترة وجود خالى بمنزلنا ، كنت أشهد اجتماعات تقيمها المدرسة وكانت هـذه مسائية تمتد الى الساعة التاسعة ، وكنت بعدها أعود وحدى الى المنزل ، وفى الليالى التى لا يكون فيها القمر ساطعا تظل المنصورة فى ظلام دامس ، وحدث ذات ليلة وأنـا عـائد ، والطريـق مظـلم ان رأيت على مقربـة من الدار

شبحا ملتفا فى ملاءة بيضاء ففزعت غاية الفزع ، وأحسست وقد اختل توازنى من الذعر اختلالا سقط له طربوشى ، فلم أعبأ به ، وجريت الى الدار فرارا من الشبح المخيف ، فلما اجتمعنا نحن الصغار ، جلست الينا تلك الخادمة « فجر » تقص علينا حكايات العفاريت كعادتها • ثم أخذت تقول : « أهو نجيب ظهر له الليلة عفريت وخطف طربوشه وقد استطعت أن استرده منه • شفت بقى يأسى نجيب ؟ اتفضل طربوشك أهه » قال نجيب فأدركت على الفور أنها هى التى تمثلت لى شبحا فى الظلام • وأنها عمدت الى ذلك لتقنعنى بما انكر من وجود العفاريت • فقلت لها مجابها : « وكيف استطعت استخلاص الطربوش من العفريت ؟ كلام فارغ انك أنت التى ازعجتنى ، وحصولك على الطربوش دليل على ذلك ، فلم تجادلنى وعرفت أن حيلتها انكشفت » وتطرقت الخادمة « فجر » الى موضوع آخر • ترى هل لو كانت الخادمة قد سكتت عن الطربوش وعن الحادث ، هل كان ذلك يزعزع من انكار عالمنا للعفاريت ؟ على أية حال فان لها فضلا فى تعميق انكاره •

التفكير البسيط :

كان لهذه الخادمة فضل آخر فى تعميق ايمان صاحبنا بعدم وجود العفاريت ، وذلك أنها لما كشف نجيب أمرها

حولت الموضوع الى ما تردد فى ذلك الوقت من أمر الدار المقابلة، وأن عفريتا يقدفهـا كل ظهر بالحصى الكبيرة ، حتى هجرهـا ساكنوها ، وسألت نجيب عن رأيه فى ذلك ، كأنها تتحداه . فقال الطفل الألمعى لابد من سبب وذهب معها فى الصباح التالى ليرى الدار فرآها مفروشـة بالحصى ، فعجب ، ولكنه لم يخامره شك فى أن لذلك سببا معقولا ، وانتظر حتى كان يوم السبت يوم أجازتهم وتسلل الى الدار وحده ، وظل مختبئا تحت الحجرات حتى صاح المؤذن لصلاة الظهر « فأخذ الحصى الكبير يتساقط على الدار ، وتبينت بوضوح ــ وأنـا مختبىء تحت شباك ــ رجلا وامرأة فى الدار المجاورة يقذفان الحصى ويتخفيان ــ فلما انقطع قذف الحصى خرجت دون أن يرانى أحد وذهبت مسرعا الى دارنا » ... وقص نجيب على والده الخبر ، وكانت لوالده بصاحب الدار المهجورة صلة ، فبعث وأخبره بما رآى نجيب فقال الرجل : « هـذا عجيب حقا .. انى كنت فعلا أعتقد ان الدار قد سكنتها العفاريت ، وذكر أن جاره قد عرض عليه شراءها منه بثمن بخس ، وكان على وشـك أن يبيعه اياها ، أما وقد بانت له الحقيقة ، فهو سيهدد ذلك الجـار برفع الشكوى الى الشرطة .. قال نجيب باشـا ببراعة الأديب المعقب بعد سرده للقصة على هذا النحو « ومنذ ذلك الحين انقطع سقوط الحصى على الدار .. وأهلت بالسكان » .. هكذا كان سلوك نجيب محفوظ ازاء العفاريت ، شاء الله له أن يأخذ بمنطق عقلانى ،

ولم يكن له مع تربيته التى أسلفنا له القول فيها أن يأخذ بغير العقلانية ، ثم شاء له الله أن تمضى معه الحوادث لتؤيد هـذا المنطق ، فى زمن لم يكن للمنطق فى مثل هذا الموضوع حظ .

وبعد فما أظنه (مع أنه قد بدا لى كذلك أكثر من مرتين) كان ترفا ، ولا عبثا ، أن نفرد الفقرات السابقة لحديث العفاريت ذلك أن فهم نجيب محفوظ الصبى الصغير لطبيعة العفاريت لم يكن الا صورة من فهم نجيب محفوظ الكبير لطبائع الأشياء ، وهو الفهم الذى تعامل به مع المشكلات الطبية والجراحية التى مارسها بعد ذلك سبعين حولا من الزمان ، ولم يعد هـذا المفهوم الذى فهم به الدكتور نجيب محفوظ المسألة نادر الوجود ، ولا صعبا على عقول أطفالنا ، ولكن هـذا لا يمنعنا أن نفيد من المنهج الذى ربى مثل هـذه العقلية فى صغرها . وبخاصة أننا نرى اليوم حين نربى جيلنا الجديد سنجدهم أكثر عرضة لمثل هـذه المفاهيم البالية التى هى كفيلة بكثير من التحجيم لكثير من العقليات ، وسنجدهم أكثر عرضة لهذا نتيجة وقوعهم فريسة الاهمال الذى فرضته قسوة ومشاغل الحياة !!

الباب الرابع

قدرات نجيب محفوظ البيانية

الفصل الأول : فى كتابة السير الذاتية .

الفصل الثانى : فى التأليف العلمى .

الفصل الثالث : من كتابات الدكتور نجيب محفوظ .

الفصـــل الأول

فى كتابة السيرة الذاتية

قد يكون (حيـــاة طبيب) أول ترجمة ذاتية لواحـــد من أطبائنا فى العصر الحديث ، ولا جدال فى أن كتاب (حياة طبيب) هى أعظم ما ظهر من هـــذا النوع من الترجمات الذاتية للأطباء حتى الآن ولا تعود هـــذه العظمة الى عظمة المؤلف وعظمة حياته فحسب ، ولكنها تمتد الى الجانب الأدبى والبيانى فى الكتاب ، الذى استطاع نجيب محفوظ أن يجعل منه وسيلة ملائمة للتعبير عن حياة طويلة عريضة عميقة عظيمة •

كانت لنجيب محفوظ قدرة هائلة على الكتابة والتعبير ، وكانت هنـــاك عوامل عديـــدة ساعدته فى الافـــادة من هـــذه القدرة :

أولا : قراءاته الواسعة فى الصغر التى اتاحتها له مكتبـــة والده الحافلة بما حوت من كتب وروايـــات على النحو الذى فصلنا فيه القول فى الباب الأول •

ثانيا : أن أبويه كانا يطلبان اليه أن يقرأ ، ويشرحان له ما خفى عليه من المعانى ، هنا ينبغى لنا أن نلتفت الى أهمية هذه الطريقة فى تنمية القدرة على التعبير (عموما) وعلى الكتابة بوجه خاص حيث يتاح للمرء أن يفيد افادة غير مباشرة فى فهم العملية التعبيرية التى تحول المعانى المفهومة أو المطروقة الى عبارات لا تستعصى على الفهم .

ثالثا : تربيته المدرسية حين كان فى المدارس فضل وقتا يبذله الأساتذة فى تصحيح موضوعات الانشاء التى كتبها تلاميذهم ، ثم فى ارشادهم الى مواضع الخطأ والى الصواب وقد أتيح هذا لصاحبنا فى مدرسة الأمريكان وفى مدرسة المنصورة الابتدائية وفى مدرسة التوفيقية على نحو ما فصل هو فيه القول من مواقف طريفة ذكرها فى قصة حياته لعل أبرزها تقدير الشيخ حمزة فتح الله له العالم اللغوى الجليل وكان مفتشا بالمعارف حيث كان طالبا ، وتقدير غيره من الأساتذة الذين لم يبخلوا عليه بما يستحق .

رابعا : ما استلزمته حياة الأستاذية منه من القدرة على التعبير والتأليف وكتابة البحوث .... الخ .

خامسا : الحياة الحافلة التى عاشها نجيب محفوظ ، والمواقف الصعبة التى مرت به ساعة بعد ساعة . ألا ترى أن بعض الخطوب تنطق من فقد القدرة على النطق .

واذن لم تكن فى كتابه (حياة طبيب) صعوبة ولا مشقة على كاتبه لو أنه أراد أن يكتب فيه حياة غير حياته ، أما أن يكتب حياته هو فذلك كان مصـــدر المشقة من هنا فان المرء لا يسعه الا أن يشير الى ثاقب فكر الأســـتاذ على أمين حين قـــال ان عيب الكتاب الوحيد هو أن المؤلف قد اختصر أربعين سنة من حياته فى بضعة سطور مع أنها جديرة بان تحتل مئات الصفحات ونحن معه أيضا فى تعليله حيث يقول : ولعل الحياء منعه من أن يتحدث بأسهاب عن سنوات النجاح كما تحدث بالتفصيل عن أيام الكفاح •

ولكن هل بعض الحياء من هـــذا العيب فى الكتاب • لا ، ولكنه يجعلنا ننظر الى مثل هـــذا العيب نظرة احترام •

أما الأستاذ يحى حقى فيدلنا على أن نجيب لم يستعمل فى كتابه لهجة ، بل كان غاية فى الرقة والظرف والسماحة •• (ولهذا فان كتابه كتاب تربوى •• لابد أن يقرأه كل شاب ليتعلم دروسا نافعة فى الحياة) •

ولكن هل (حياة طبيب) عمل ابداعى أم لا : ؟ هـــذا يقودنا الى سؤال قد يكون بعيدا عن موضوعنا ، ولكنه قريب منه كل القرب • فاننا لو أردنا أن نعطى الحكم فيه لقادنا الأمر الى الاجابة عن سؤال أهم : هل الترجمـــات الذاتية أعمـــال ابداعية أو لا ؟

ولعل الاجابة على مثل هذا السؤال تسير فى اتجــاهين :
المحور الأول ينفى عن الترجمات الذاتية صفة الابداع ما دامت قد صورت الواقع الذى وقع كما وقع على أن التفكير الحديث لم يعد يقبل مثل هــذا المفهوم لفهم الابداع ، ألا ترى أن التفــكير الحديث فى مثل هــذه المسألة قد أقر الكاميرا فى يد الفنان أداة لتصوير مشاعره تجــاه واقعة كما هى أداة لتسجيل هذا الواقع ! .

والمحور الثانى هو الى أى حد كان الابداع فى الكتابة عن الذات ، وهنا يأتى نجيب محفوظ بكتابه (حياة طبيب) أروع مثل على هذا الابداع فى الترجمات الذاتية .

وها نحن قد أصبحنا قريبين من موضوعنا كل القرب بالاجابة عن هذا السؤال واذن « فحيــاة طبيب » من أدب الابداع ، لامراء ، ولكن ما الفائدة ؟ هل يضيف هــذا الى نجيب محفوظ مجدا ؟ هل يتيح له الظفر بجائزة فى هذا الصدد ؟ هل هو عنصر من عناصر يجب أن تكتمل فيه ليحتل مكانة معينة ؟ أظن أن هذا كله ليس بالأمر المهم وانما الفائدة هنا تعود على أدب الابداع حين ينتظم تحت لوائه أمثال هــذه الأعمال العظيمة وليس من حق أدب الابداع أن يتخلى عن ابن لا يشرفه فما بالك بالذى يشرفه ؟

ولكن هل كان لنجيب محفوظ قبل هـذا الكتاب شيء آخر فى مجال الأدب ؟ يحدثنا نجيب محفوظ نفسه — أنه فى مناسبات مختلفة بعد تخرجه من مدرسة الطب بسنين عدة ، نظم شعرا عاميا من النوع المسمى « الزجل » قصـد به تسلية أفراد عائلتـه ابان الحرب العالميـة الأولى ويورد لنا نجيب محفوظ نموذجا من هذا الزجل الذى كتبه عندما ظهرت فى سماء القاهرة المناطيد الألمـانية (راجع ص ٤١ من كتابه) .

ولكن الى أى مدى كان البعد الذى وصـل اليه الأدب التقليدى فى كتاب نجيب محفوظ (حياة طبيب) ؟ لاشك انك تجد فيه عبارة واضحة وأسلوبا سلسا ، ومنطقا دقيقا وفكرة عميقـة ولكنك تجد فيه مع ذلك بعدا عن التكلف ، وخلوا من الحشو ، وصفاء من التعقيد وهل الأدب بعد ذلك الا ذلك ! نعم ما الأدب الا هذا النسيم .

بيد أن نجيب محفوظ أراد — أو نصح حين سأل النصيحة أن يضع بعض اللوحات التعبيرية الحافلة على طريقة أدباء العصور المتأخرة — فلم يمانع ولم يكثر فجاءت هـذه اللوحات كما تجيء اللوحات الراقية حين توضع فى بعض الأماكن الراقية .

ولعل أمثلة هذه اللوحات ما تقرأ من بداية نجيب محفوظ كتابه يوصف مسقط رأسه (على الضفة الشرقية من فرع النيل

المسمى (فرع دمياط) وعلى بعد ستين كيلو مترا من مصبه تقوم مدينة المنصـــورة عروس الدلتا وعاصمة الدقهليـــة ومن مميزاتها على غيرها من العواصم أن وجهتها تستد على شاطىء ــ النيل بضعة كيلو مترات ، وتترامى عليها مصابيح وهاجة ، متى أضيئت جعلت المنظر فتنة للعيون ويظهر هـــذا الجمـــال على أتمه للقادمين ليلا بالقطار السريع حين يعبر الجسر الذى يصل بين المدينة وقرية طلخا المقابلة لها على الضفة الغربية للنيل) .

وكذلك الفقرة التى وصف فيهـــا وفـــاة والده (راجـــع الكتـــاب) ؛ ولا يقتصر الأمر على اللوحـــات ولكن للتعبيرات أيضا نصيبا ، وقد يكون من ذلك تعبيره فى وصف فتاة أحلامه « كل من هو فى شرخ شبابه وزهرة حياته يتخيل فتاة أحلامه على الصفة التى ينشدها ، ويرى فيها مثله الأعلى وكذلك كان شأنى فقد كانت الزوجة التى أحلم بأن يرشدنى اليها ربى ، فتاة لها من الثقافة نصيب ، وللدين على نفسها سلطان ، أوتيت حظا من الجمال ووهبت عذوبة الحديث وهى الى جانب ذلك سليلة أسرة من كرائم الأسر .

وكذلك الفقرة التى يصـــور فيها فى المقدمة كيف جاءته الفكرة فى التأليف ؟ والآن وأنـــا أقضى جانبا من رحلتى الصيفية فى مدينة لوسرن طافت بمخيلتى ذكرى الأوقـــات الهائئة التى أمضيناها على الشاطىالجميل لبحيرة تلك المدينة نصغىالى تغريد

الاطيار ونستنشق النسيم الذى يهب محملا بأريج الأزهار ونشاهد البجع منسابا فى جلال على صفحة الماء الزرقاء ، كانما يتيه عجبا بما يسطع عليها من لؤلؤ أجنحته البيضاء » « هنالك اختلج فى وجدانى حنين الى أن أدون ذكريات حياتى تلبية لرغبتكم التى كاشفتمونى بها من قبل ، ولم أملك الا أن أخلو الى نفسى ، أعرض ما سلف لى من أحداث وشجون ، والقلم فى يدى يجرى بما تمليه الذاكرة . تارة وأنا جالس على مقعد من تلك المقاعد المريحة المتناثرة على ضفاف البحيرة بين صفوف الأشجار الظليلة يجتلى نظرى ما يشع من لازورد السماء ، وما ينعكس من زمرد الغابات ، وطورا أطل من غابة الجوتش على سلاسل من الجبال الشوامخ تتوج هاماتها ثلوج ناصعة كأنها أكاليل الماس وأخرى دونها ارتفاعا تغطى قمتها غابات باسقة الشجر ، وتنحدر أوديتها المكسرة ببساط سندس نحو البحيرة تداعب موج الشاطى .... الخ » .

أما عن استشهاد نجيب محفوظ بالشعر فى كتابه ففيما عدا البيتين اللذين بلور فيهما أمنيته فى قصر العينى عند خروجه منه وعند رجوعه اليه فاننا لا نجد للشعر مكانا بين سطور (حياة طبيب) وقل ما استشهد محفوظ بمأثور القول ، ولعل سبب ذلك أو نتيجته أن عباراته نفسها خرجت كأنها من صميم القول.

ولكن لماذا كتب نجيب محفوظ مذكراته ، يحدثنا الرجل

فيقول « انه كان ينوى أن تكون موقوفة على أسرته ، بناته وأزواجهن ، يرجعون اليها متى شاءوا ولكنهم أبوا أن يستأثروا بها ، وألحوا عليه فى أن يحتويها كتاب ينشر على الناس » ولم يكن من السهل عليه أن يقتنع بذلك لايمانه بان الحديث عن النفس لا يخلو من غضاضة ، ولا يسلم من الاطناب ولكنه مع الوقت « بان لى أن من حق الشباب علينا التحدث اليهم بما صادفنى من عقبات ومصاعب ، وما أفدت من خبرة وتجريب ، وكيف كان مبلغ اعتصامى بالصبر والمثابرة ، وما كان لى من وقفات ازاء المشكلات .... فربما كان فيما أبسطه نفع لمن يصادفهم مثل ما صادفت اذ يأخذون أنفسهم بمواصلة السعى فى أداء الواجب نحو الله والوطن والانسانية لا يعوقهم اغفال أو سوء تقدير ، ولا تبطرهم حظوة أو تشجيع ولكن يشقون طريقهم فى رضا واطمئنان » .

ويستطرد الدكتور نجيب محفوظ ليقول : ومما أغرانى بالموافقة على نشر تلك المذكرات انى بدأت حياتى العملية فى حقبة لها أوثق الارتباط بتطور مدرسة الطب المصرية بل بتطور الطب نفسه وفيما جرى بين يدى من الأحداث بعض ما يلقى ضوءا على هذا التطور ويكشف معالمه ويبين وسائله وذلك يجعل من المذكرات عونا لمن يبحثون ويؤرخون لتلك الحقبة الدقيقة فى تاريخنا المعاصر .

وهكذا يتضح لنا أن نجيب محفوظ هدف من مذكراته الى هدفين كبيرين :

الهدف الأول : هو أعطاء الشباب حقهم من الخبرة بحياة الآباء كيف كانت وممارستهم للحياة بما أحاط بها من أحوال وأسباب •

الهدف الثانى : هو تسجيل الأحداث التى صاحبت تطور مدرسة الطب المصرية •

فاذا نظرنا الى الناحية الكمية فى كتاب نجيب محفوظ وجدناه قد خصص ٥٦٪ من الكتاب لمناقشة مشواره الطبى فى الفصل الثامن (فى مدرسة الطب) والتاسع (فى مستشفى القصر العينى) والحادى عشر (نهاية الدراسة) والثانى عشر (شهور مع الكوليرا) والثالث عشر (عام فى مستشفى السويس) والرابع عشر (فى مكتب الصحة) والخامس عشر (فى ميدان العمل الحر) والتاسع عشر (فجر النهضة) والعشرين (انشاء مستشفى للولادة وقسم لرعاية الاطفال) والحادى والعشرين (متاعب يعرض لها المولودون) والثانى والعشرين (فى سبيل الحق) والثالث والعشرين (فى المؤتمر الدولى لأمراض المناطق الحارة) والخامس والعشرين (متحف أمراض النساء والولادة) والسادس والعشرين (كتابى « أطلس محفوظ ») والسابع والعشرين (الزمالة الفخرية للجمعية الطبية البريطانية) •

أما الهدف الأول فلم يفتأ نجيب محفوظ يعمل له فى كل فصل وكل صفحة وكل فقرة من كتابه سواء فى مجال مشواره فى الحياة أو مشواره الطبى أو حتى رحلاته آلا تستمع اليه وهو يصف استعداده للسفر الأول الى أوربا فيحدث الشباب عن نهجه فى التنظيم فيقول « ولكى أكون على بينة من المشاهد الهامة ، اشتريت الكتب السياحية التى كان يصدرها (بدكيير) ويضمنها معلومات وافية فيما يتعلق بالمتاحف والمستشفيات والفنادق والمواصلات فدرستها دراسة وافية حتى كدت أحفظ ما فيها عن ظهر قلب ثم اتصلت بشركة (كوك) للوقوف على نفقات السفر والاقامة فتبين لى أن المال الذى ادخرته فيه كفاية ، فنويت أن أجعل فترة الصباح لزيارة المستشفيات ، وما بعد الظهر لزيارة المتاحف وما اليها ، وساعات السهرة لارتياد المسرح وحددت مواعيدى يوما فيوما بل ساعة فساعة .

على أننا لو مضينا نبحث ونستخلص النصح والعبرة من كتاب نجيب محفوظ لأتينا عليه كله ، وهذا هو المعنى الذى عبر عنه عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين حين قال : « هذا الكتاب ممتع الى أقصى غايات الامتاع فيه ألوان من الفائدة لا تكاد تحصى ، فيه العبرة ، وفيه الموعظة ، وفيه أسوة للشباب ، فيه المتعة التى نجدها فى كتاب عرف صاحبه كيف يكتبه ، لا تجد فيه تكلفاً ، ولا تجد فيه اهمالا ولا مبالغة من

هذه المبالغات التى يتورط فيها كثير من الذين يتحدثون عن أنفسهم ، وهو سائغ ميسر منذ ان تبدأ ــ قراءاته الى أن تفرغ منه » ويستطرد الدكتور طه حسين الى النقطة التى استطردنا منها الى كلامه فيقول : « وهو نفسه يعرف كيف يستخرج العبرة من حياته ، وكيف يجد مواضـــع الفطنة والتأمل بحيث تقرأ كتابه فتكاد تعتقد أنه لم يكتب لنا الا حديثه الخاص الى نفسه كأنه يستعرض فى أوقات التأمل والتفكر حياته منذ الصبى الى أن تقدمت به السن وكان أداة ــ سحرية كانت تلحظه وهو يتأمل فى حياته ويستعرضها فتسجل أحاديثه الى نفسه وتنشرها بعد ذلك على الناس فى هــذا الكتاب » •

ولاشك ان هذا النصح وتلك الخبرة اللذين استغرقا كتاب نجيب محفوظ لم يكونا الا صورة من صور العمل بالمبدأ الذى أخذ به عالمنا نفسه منذ الصغر وجعله شعاره ووضعه فى أول الكتاب عنوانا عليه : « ان لم تكن قد أعطيت الناس نفسك ، فانت لم تعطهم شيئا » •

الفصـــل الثـــانى

فى التأليف العلمى

كان انجاز الدكتور نجيب محفوظ فى هـذا المجـال من أروع الانجازات ، لم يدع مجالا من مجال تخصصه حتى كتب فيه على جميع المستويات للطبيب وللممرضـة ، لليوم وللغد ، بالصورة وبالكلمة .

ولعل نجيب محفوظ قد لقى الجزاء الأوفى على هذا الجهد فى حياته وبعد مماته بما حققت مؤلفاته من ذيوع صيت ، وتقريظ وافر من علمـاء العالم أجمع ، وقبول واسـع لدى الأجيـال الجديدة .

على أن كل هـذا كان نتيجة جهد جهيد لعله يفوق جهد محفوظ فى ممارساته الاكلينيكية ، ونتيجـة تضحيات بالوقت وبالمـال صدرت عن ايمان قوى بالفكرة عند محفوظ .

وسوف يرينا الباب الخامس من هذا الكتاب كل هـذه

الجوانب على نحو تتضح معه الابعاد الحقيقية لجهد الرجل ، وقيمة الآثار ، وتقدير المجتمعات العلمية للجهد والقيمة ٠

انما يريد هذا الفصل من هذا الباب من هذا الكتاب أن يلقى بعض الضـــوء على أسلوب نجيب محفوظ فى التأليف العلمى ، وهو أسلوب سهل غاية السهولة ولكنه فى الوقت ذاته ممتع ، وهو ليس بالأسلوب الفريد من نوعه بل قد يكون هو الأسلوب التقليدى عند العلماء المؤلفين ، ولكن فى الابداع فى هذا الجانب فضل لا يقل عن فضل الابداع فى الأعمال الأدبية ٠

وقد تفهم من أســـلوب نجيب محفوظ فى ترتيب كتاباتـــه العلميـــة على النحو الذى يبدأ فيه دائما بالمقدمات التاريخيـــة لموضوع بحثه أنه كان من أصحاب المنهج التقليدى ، وقد تفهم من ذلك « غزارة علم ومادة فياضـــة » على حد تعبير الدكتور محمود فاضل سليم ، ولكن الذى لاشك فيه آن فى هذا الأسلوب تعبيرا عن ايمان صاحبه بأهمية أن يعرف هو وأن يعرف كذلك القارئون له والمتلقون عنه أين يضع هـــذا الجديد من تراث الانسانية العلمى كله ! ولعل هـــذا ما يعطينا الدرس حين نذهب فنبحث ونكتب وننشر ونظن أننا نأتى بجديد ونسبق الى أرض بكر بينما الأمر أبعد ما يكون عن ذلك ٠ ومع هذا تبقى لتلك المقدمات التاريخية فائدتها المباشرة التى لخصها العالم الأمريكى الدكتور جريد هل حين قال : « من الصفات المميزة لأبحـــاث

محفوظ أنها تبدأ دائما بفذلكة تاريخية فتشرح التطور التدريجى الذى اجتازه كل من عانى متاعب البحث فى المرض الذى يبحث فيه وتعطينا فكرة واضحة عن السير المتتابع المتلاحق فى التفكير الذى ينتهى فى آخر (الشوط) الى معلوماتنا الحاضرة » .

كان الدكتور نجيب محفوظ مشغوفا بالتاريخ بلا شك ولو لم يكن طبيبا ناجحا لكان مؤرخا ناجحا كذلك ، وكان نبوغه فى هذه الناحية انعكاسا لعقليته المرتبة واحساسه بالزمان احساس العلماء المقدرين لا احساس الهاربين من حاضر أو من مستقبل ، وقد أدرك هــذه القدرة فيه الدكتور على ابراهيم فكان أن هيأ لتاريخ التعليم الطبى فى مصر هــذا السفر الذى كتبــه نجيب محفوظ بتشجيع من الملك فؤاد ، ثم ان حياة طبيب فيه من التــاريخ أكثر مما فيه عن الذات . وكان نجيب محفوظ حين يتناول المسائل العلمية يحرص على اسناد الفضل لأهله ولا ينى عن ذكر الاسماء ، فاذا ذهب ناحية السياسة والاجتماع والمثالب أو المواقف الخلقية التى لاتحسب لصاحبها أحجم عن ذكر الاسماء، ومع أن هذا التقليد الخلقى يلاقى كثيرا من التقدير والأخذ به حتى اليوم ، فان كاتب هــذه السطور أصبح يشك فى مدى تقديرنا للفرق بين مزاياه ومثالبه .. ولعل مثالبه قــد أصبحت تفوق مزاياه ، وعلى سبيل المثال فان كثيرا من الوقائع التى أوردها الدكتور نجيب محفوظ فى كتابه حياة طبيب قد باتت تهدد كثيرا

من الاسماء فى تاريخنا الحديث والمعاصر فمن هو يا ترى رئيس الوزراء الذى جومل فى تعيين ابنه ؟ ومن هى الراقصة ؟ ومن هو الزميل ؟ .. الخ) . ولو أنصف الدكتور نجيب محفوظ لرفع السيف المصلت عن طائفة من رؤساء الوزارة بتحديد بعض صفات الشخص الذى عناه مثلا فأبعد الظن السىء عنهم فى مجموعهم .. وبخاصة أنه لم تكن له تلك القدرة (الاحترافية) على اللف والدوران فى كتاباته ، والتصريح بما لمح الى أنه يخفيه ثم التلميح بأنه صرح بما لمح به .. وما شابه ذلك .

ومع أنى أحب أن أكرر قيمة فهم نجيب محفوظ للتاريخ ولتاريخ العلم فى فهم العلم والحياة الواسعة على نحو ما أسلفنا ، الا أن هذا لا يمنعنى ولا يمنع القارىء من أن نمضى مع أولئك الذين يجدون فى هذا الجانب من نجيب محفوظ دلالة على اطلاعه ، ودقة فهمه .. وما الى ذلك من أمور ينبغى بلاشك الاقرار بقدرها وقيمتها ، وقد يكون كل هذا مما يرفع شأن الرجل بلاشك ، ولكن الذى لاشك فيه أن فهمنا لفهمه لأهمية هذه الأمور التى تبدو عند البعض (علوما موازية) paramedical سوف يكون له أثر فى النظرة الى شخصية متكاملة بالفعل فى تفكيرها .. ومع هذا فلتقرأ عبارات زميله الدكتور رشدى اسماعيل حين يقول :

« أما عنايته بأمر الطب القديم والطب عند العرب على وجه

أخص فهى دليل آخر على حبه للاطلاع واعجـابه بما يستحق الاعجاب من القديم والحديث . وله آراء قيمة فى طب العرب وما وصـلوا اليه من أبحـاث فى بعض النواحى العلاجيـة وما اهتدوا اليه من عقاقير وأدوية فأشاد بفضلهم ونضج أبحاثهم كما أنه أبرز أسماءهم وعرف الناس بمكانتهم بكثرة ما تحدث عنهم وأذاع بعض جهودهم .

وقد كتب تاريخ الطب فى مصر فأثبت أنه العالم الواسـع الآفاق المدقق فى أبحاثه ، الأمين فى عمله — لقد رجع الى المصادر الانجليزية والفرنسية والعربية وخلص منها بكتـاب نفيس عن تاريخ الطب من عهـد الفراعنـة الى الآن وزوده بالصـور والاحصاءات وأنصف فيه كل من يستحق الانصاف وأعطى كل ذى حق حقه فكان مثالا للمؤرخ الصريح المنصف » .

الفصــل الثــالث

من آثار الدكتور نجيب محفوظ

(١) قصتى مع كلية الطب

كلمته فى حفل تكريمه بفندق سميراميس (يونيو ١٩٥٠)

ســيداتى وســادتى :

انتى أشعر بسرور فائق فى قيامى للرد على التحية الكريمة التى تكرم سعادة الرئيس بتوجيهها الى ، وأيضا على الكلمــات الرقيقة التى تفضل حضرات زملائى وأصدقائى بكتابتها وقد نشرت فى المجموعة التى سترسل لحضراتكم قريبا والتى صاغوا لى فيها من المديح فوق ما أنــا جدير به •

كما أنه يسعدنى حقا أن تهيأت لى الفرصــة لأقدم خالص شكرى لحضرات أصدقائى الذين ساهموا فى تكوين رأس المــال لجائزة تفضلوا باطلاق اسمى عليهــا ولحضرات الذين تكرموا بحضورهم الليلة • انتى أشعر حقا بعجزى عن أن أجد الكلمات التى أستطيع بها التعبير عما يجيش بصــدرى ويختلج فؤادى

من الشكر والتقدير لهم جميعا وانه ليسعدنى أن أرى بين الذين اجتمعوا الليلة صفوة من الرجال الذين أسدوا للبلاد خدمات جمة ، فان فى حضورهم معنى أسمى من مجرد اظهار تقديرهم لشخصى ألا وهو مساهمتهم فى تقدير العلم الذى أعد نفسى من أصغر جنوده • كما أنه يســعدنى بصفة خاصــة أن أرى بين الحاضرين الليلة لفيفا مباركا من الجيل الجديد من تلامــذتى وزملائى الذين تفتحت كفاآتهم أمام عينى فى السنين التى عملوا معى فيها كمــا تتفتح الورود الناضرة • وأن أشــاهد هــذه الأيدى التى حملت معنا وعنا بكفاءة ممتازة ، تلك الشعلة التى تشاء الأقدار أن تكلف بحملها شخصا أو أشخاصا جيــلا بعد جيل •

حقا ان عجلة الدهر فى سيرها المتواصل غير المحسوس به تولد فى نفوس المشتغلين بالعلم ارتياحا نفسانيا وطمأنينة تتزايد مع مرور الزمن عندما يرون هذه الأيدى القوية تمتد راغبة من قلوبهــا فى أن تحمــل على آكتافها نصيبها من هــذه المسئولية الكبيرة •

ليس غريبا يا سادتى اذا قلت لكم ان قلبى يطفح سرورا عندما أرى هــذه الطبقة الناشئة من الأطباء تتبوأ اليوم المكانة اللائقة بها وتسير فيها قدما ، لا للاحتفاظ بمركزها الحــاضر

فحسب ، بل متطلعة الى اكتساب السمعة اللائقة بمصر وبجامعاتها العلمية ، فصاروا موضع تقدير العالم الطبى واحترامه .

ويزداد هذا الفرح عندما أرجع بالذاكرة الى اليوم الذى تخرجنا فيه من المدرسة ونزلنا الى كفاح العمل الخارجى وكيف وجدنا الجو مظلما مكفهرا لا أمل لنا فى وظائف الحكومة ، سواء فى مدرسة الطب أو فى المصالح الطبية ، حيث لم يكن يعين الطبيب المصرى الا فى أتفه الوظائف وأقلها شأنا ، ولا فى العمل الخارجى حيث كاد العمل يكون مقصورا على الأطباء الأجانب . كان عصرا فقد فيه المصرى احترامه لبنى جنسه وضعف اعتقاده فى كفاءتهم ولم يكن يطمئن الا الى الطبيب الأجنبى مهما بعد مكانه أو ارتفع أجره .

وقد استوجبت هذه الحالة كفاحا مرا اشتركت فيه جمهرة من رجال الطب أطباء وصيادلة ومن خريجات مدرسة التمريض الذين رأوا فرضا عليهم أن يضعوا حدا لهذه الحالة السيئة ، وأن يستعيدوا ثقة الرأى العام بالطبيب المصرى ووضعه فى المنزلة اللائقة به . ولم يكن جهادهم مقصورا على النشاط العلاجى فحسب ، بل تعداه الى ما هو أعظم شأنا وأكثر خطورة وهو مركز الطبيب المصرى أمام العالم . فتأسست الجمعية الطبية الملكية وظهرت مجلتها التى لم تنقطع عن الظهور حتى فى أحلك أيام الحرب بفضل ما أظهره حضرة سكرتيرها العام العالم

الكبير الأستاذ خليل بك عبد الخالق من الهمة والنشاط ، ولا أرى حاجة بى الى تعداد ما قـام به الأطبـاء المصريون من البحوث العلمية القيمة التى نشروها فى مجلتهم أو فى أمهات المجـلات الأجنبية أو فى المؤتمرات التى عقدت فى مصر أو فى خارجهـا . وقد ساعد على بلوغ هـذا النجاح استمرار تلك الثورة الفكرية التى سايرت الانقلاب السـياسى منذ سنة ١٩١٩ والنهضـة المتوثبة التى تغلغلت فى نفوس المصريين منذ ذلك الحين فأنبتت نباتا حسنا .

سـيداتى وسـادتى :

طلب منى كثير من أصدقائى أن أعطى صورةولو موجزة للحالة التى كانت عليها مدرسة الطب عندما ساعدنى الحظ على الالتحاق بها كطبيب للتخدير بعد مرور عام على تخرجى ، فلم أر بدا من النزول على رغبتهم .

كانت مدرسة الطب فى ذلك الحين قد دخلت فى دور نشاط جدى تناول الطلبة وأساتذتهم ، فأخذت روح جديدة تدب فى مرافقها المتعددة . ففى المستشفى كانت أقسام الجراحة والأمراض الباطنية والرمد عامرة بالمرضى يتولى العمل فيها أطباء أفذاذ مثل مادن وعلى بك لبيب وملتون وفيشر وساندويث وطلعت باشا وفليبس وترايب وعلى بك حيدر وفرنسيس باديربك وبيومى بك

فتحى الذين شاءت العناية الآلهية أن يكونوا معلمينا ومرشدينا فى ذلك العهد •

وكانت أقسام الباثولوجيا والتشريح والطفيليات والطب الشرعى تفخر بمن تولوا العمل فيها أمثال سيمرس ولوس وولسون واليوت سمث وسدنى سمث وبيتر وشمت ومحمد ناشد بك وعلى بك مراد •

أما قسما الولادة وأمراض النساء فلم يكن لهما وجود ألبتة فقد فشلت كل المحاولات التى بذلت فى عهود مختلفة لافتتاح عيادة لأمراض النساء لعدم اقبال المريضات فعن لى أن أتقدم للدكتور كيتنج بطلب كان يبدو فى أول الأمر غريبا جدا ، وجريئا ، وكان من المنتظر أن يكون نصيبه الرفض ، لولا أن عززه وتولى الدفاع عنه أستاذاى ملتون ومادن ، ذلك انى أردت أن يسمح لى بافتتاح عيادة خارجية لأمراض النساء بقصر العينى أتولى العمل فيها بين الساعة الثامنة والتاسعة صباحا • وبعد تردد كبير صدر الأمر بافتتاح هذه العيادة ولكنى لم أكد أبدأ العمل فيها حتى تبين لى عجزى ، وصادفتنى صعوبات كادت أن تفت فى عضدى ، فشعرت بجلال المسئولية التى أخذتها على عاتقى وأنا شاب لم أكد أتجاوز العشرين من عمرى تعوزنى التجارب والخبرة ولم أصل بعد الى درجة مرضية من النضج • ومما زاد هذه المسئولية خطورة أنه بعد بضعة أشهر من افتتاح

العيادة الخارجيــة كلفت بتدريس الولادة وأمراض النســاء بمدرسة الممرضات ، وباعطاء محاضرات اكلينيكية للطلبة ، ولم يكن بالمستشفى حوامل ولا مريضات بأمراض نسائية تمكننى من تمرين الطلبة والطالبات . كما أنه لم يكن بمدرسة التمريض كتب للتدريس باللغة العربية ، وكان الاعتماد قبلا على ملخصات مطبوعة على البالوظة طال عليها القدم ، وحرفت فى النقل تحريفا شنيعا حتى أصبحت خليطا من الجمــل لا ارتباط بين بعضها والبعض الآخــر ، وفــوق كل ذلك كان المتحف الباثولوجى بالمدرســة خاليا تماما من النماذج الخاصــة بالحمل والولادة وأمراض النساء وهى عماد المدرس فيما يلقيه على الطلبــة فى أثناء المحاضرات . فرأيت لزاما على أن أذلل هذه الصعوبات بنفسى فمرت على فترة من الزمن بدأ فيهــا اليأس يدب الى نفسى . ولكن العناية الآلهية أدركتنى ومدت الى يد المساعدة فوضعت كتابا فى الولادة وآخر فى أمراض النساء وآخر فى أمراض النساء العمليــة ، واضطررت الى طبعها على نفقتى لأن ميزانية المستشفى كانت فى ذلك العهد ضئيلة ولا رصيد بهــا للمطبوعات . وعمدت منذ أول عهدى بالعمل الى تحضير نماذج طبية من متحصــلات عملى فى قصر العينى وخارجه ، وكنت أقوم بتحضيرها بنفسى فى عيادتى الخصوصية وأستحضرها معى للتدريس عليها .

وبعد سنوات قليلة أتممت تحضير ٣٥٠ نموذجا كانت هى النواة التى بنيت عليها أنا وزملائى بقسم أمراض النساء المتحف الذى أهديته الى الكلية بعد ذلك • وقد وافق تاريخ اهداء هذا المتحف للمدرسة تعيين الدكتور بولجاكوف أمينا للمتاحف • وقد أظهر بولجاكوف من الكفاءة فى مساعدتى فى تحضير النماذج الجديدة وترتيبها ما أذكره له بالشكر الجزيل • ولا أنسى المعاونة القيمة الممتازة التى قدمها الى زميلى وصديقى الأستاذ سرور بك فى تحضير ١٥٠٠ شريحة مكروسكوبية وشرحها شرحا وافيا ، كما أذكر بالشكر المساعدة القيمة التى أظهرها حضرة صديقى وزميلى مصطفى بك عمر فى تحضير أكثر من ٧٠٠ شريحة للفانوس السحرى •

سيداتى وسادتى :

كان عدد المريضات اللاتى يحضرن للعيادة الخارجية فى بدء انشائها قليلا ولكنه أخذ فى الازدياد بسرعة حتى بلغ بعد سنتين أكثر من ١٥٠٠ مريضة جديدة فى السنة • وكان هذا الاقبال المتزايد سببا فى تخصيص عشرة أسرة بالمستشفى لأمراض النساء كنت أتولى العمل بها تحت اشراف الأستاذين مادن وملتون وبلغ عدد الجراحات التى اجريت فى السنة الثانية ١٦٠ جراحة ، وصار من الممكن الآن تمرين الطلبة والطالبات فى الأمراض النسائية الى حد ما • ولكن مشكلة تمرين الطلبة على التوليد ، ومشكلة

رفع مستوى توليد الفقيرات فى منازلهن بوساطة طبقة متعلمة من الحكيمات والطلبة لضمان القضاء على حمى النفاس ، فلم تحل بصفة مرضية ، الا عندما وفقت بعد بضع سنوات الى افتتاح قسم للتوليد الخارجى ولرعاية الحوامل قبل الوضع وبعده •

وفى نهاية السنة الثانيــة لالتحاقى بمدرســة الطب كتبت تقريرا عن العمل ساعدنى فيه المستر مادن ونشرت خلاصته مجلة اللانست فى عددها الصادر فى أغسطس سنة ١٩٠٦ ونقلته عنها المجلات الأخرى • واتصل علم هــذا التقرير بالدكتور كيتنج فاستدعانى لمكتبه وصافحنى بحرارة وهنأنى على نجاح العمل • وكم كانت دهشته عظيمــة عندما أخبرته بعد شكرى له ، أنى أعتبر هــذا النجاح أعرج لأنى أحرزته بتطبيق المبادىء التى تعلمتها من الجراحة على أمراض النساء ولكن ينقصــه الشىء الكثير من الفن الذى جعل من الولادة علما قائما بذاته • واقترحت حلا لذلك اما ارســالى الى بعثة أو استدعاء خبير فى الولادة يعين رئيسا للقسم وأعين أنــا مساعدا له • فبعد أخذ ورد كثيرين عرض الأمر على مجلس المدرســة فوافق على استدعاء الدكتور روى دوبن وكان مساعد رئيس مستشفى الروتندا • ومن حسن حظ المدرســة أن قبل الأستاذ دوبن ما عرض عليه وعين رئيسا لقســم الولادة • وقد أظهر دوبن كفاءة ممتازة واخلاصــا فى العمــل •

ويسرني أن أعلن الليلة أني مدين له دينا لا يوفى ٠

وبعد بضعة أعوام انضم الينا صديقي وزميلي الأستاذ أحمد باشا شفيق فتضافرنا على العمل وجاهد ثلاثتنا ايما جهاد حتى استطعنا أن نصل بالقسم الى حالته الحاضرة ٠ ثم أخذنا في اعداد جيل جديد فكنا جد موفقين في اختيار من ستلقى اليهم أعنة القيادة من بعدنا فعمر القسم بمجموعة من الأطباء تفخر بها أي كلية في العالم ٠ وقد سرنا في العمل (معا) كبيرنا وصغيرنا بروح الود والوئام التي كانت أكبر عضد لنا على بلوغ النجاح ٠

بقي على واجب هو من أحب الواجبات الى وأقربها الى قلبي ألا وهو واجب الشكر ٠ أبدأه بالشكر لله عز وجل الذي ملأ قلوبنا طمأنينة على مستقبل كلية الطب فقد كان من فضله وكرمه أن هيأ لها بعد انتقال قيادها الى أيدي المصريين مجموعة مباركة من العمداء الذين عمرت قلوبهم بحب مصر ، بدأت بفقيد الطب الراحل على باشا ابراهيم صاحب الفضل الأكبر في اقناع الحكومة ببناء مستشفى فؤاد الأول ٠

وجاء بعده العالم الجليل الأستاذ سليمان باشا عزمي الذي أنشأ بالكلية معهد الأمراض المتوطنة ، واليه يرجع الفضل في تهيئة الجو لقصر التمريض على الممرضات دون الممرضين ، كما أنه استطاع بعد جهود موفقة (الى) جمع مائة ألف جنيه

بالاكتتاب العام ليوم المستشفيات خصص ريعها لمستلزمات العلاج التى لا تستطيع المستشفيات صرفها للفقراء • وقد تلاه فى العمادة الأستاذ ابراهيم شوقى باشا • وكانت شهرة ابراهيم شوقى باشا أثناء وكالته لكلية الطب وادارته لمستشفى الأطفال وفى عيادة رعاية الطفل التى كان له الفضل فى انشائها بقصر العينى قد أصبحت حديث الزائرين الذين تستقدمهم الجامعة لفحص مستوى التعليم حيث وصفوها بأنها ادارة حازمة موفقة يصح أن تكون مثالا يحتذى ، وقد ترك شوقى باشا بكلية الطب من آثار جهوده ما رفع شأنها وزاد من قدرها ، اذ بذل مجهودا جبارا فى رفع مستوى الأطباء المشتغلين بالأقسام البحتة وأنشأ لجنة للبحث العلمى عملت على تنسيق العمل فى البحوث العلمية بين أقسام الكلية ، وخصص لها عنبرا بالمستشفى يسع ٢٠ سريرا • وقد حل بذلك المشكلة الكبرى التى كانت تقف عائقا فى سبيل البحوث العلمية • كما أنه صمم على أن ينفذ النظام الذى بمقتضاه يكون الرقى الى الدرجات العليا مرهونا بما يقدم الطبيب من البحوث العلمية ، واستطاع أن يحصل من الحكومة على ٦٠٠ر٠٠٠ جنيه لاتمام مبانى مستشفى فؤاد الأول • وقد تم فى عهده بناء بعض الأقسام وترك لخلفه العالم الكبير الأستاذ مصطفى بك فهمى سرور اتمام البقية •

أما سرور بك فقد أظهر فى مدة عمادته للكلية الشىء الكثير من الكفاءة واللباقة التى كانت حديث الكلية كلها ، كما أنه

كان عهدا رفع فيه شأن البحث العلمى ونشرت كثير من البحوث الهامة . ولما انتهت مدة عمادة سرور بك أجمع مجلس الكلية على السعى لاقناع العالم الكبير جراح مصر العظيم الذى أجمعت البلاد على حبه واحترامه عبد الوهاب باشا مورو أن يقبل عمادة الكلية فقبل . ولم يكد يتولى قيادتها حتى استولى على قلوب أساتذتها فنال ثقتهم الغالية ، وعلى قلوب الطلبة فنال احترامهم القلبى وتقديرهم . وأنشأ جوا من التعاون بين الطلبة وأساتذتهم كان ينقص الكلية ، كما أنه ينقص كل المعاهد العلمية بمصر بشكل ظاهر . وهذا الجو هو فى نظرى أكبر كفيل للسير بالكلية فى مدارج الرقى اللائق بماضيها المجيد وحاضرها العظيم، وهو الكفيل أيضا باخراج جيل قادر على صيانة هذا التراث العظيم والعمل على زيادته . وقد وضع مورو باشا فى مقدمة برنامجه الاصلاحى تسهيل وسائل البحث العلمى على الذين يرغبون فيه ، وتزويد المعامل بكل ما وصل اليه الاكتشاف العلمى ولاشك فى أن هذا التجديد هو حجر الأساس فى كل عمل منتج . وأخذ مورو باشا فى تنفيذ برنامج من المبانى التى تنقص الكلية ، ستصير بعد اتمامها معهدا من أكبر المعاهد العلمية . وكلنا على ثقة بأن الكلية فى عهده ستبلغ أعلى درجات الرقى وأسمى مراتب الشرف .

ويسرنى أن أنتهز هذه الفرصة فأوجه الشكر الى زملائى

وزميلاتى وتلامذتى وتلميذاتى والى الممرضات ورئيساتهن والى الحكيمات اللائى عاونونى مدة عملى بكلية الطب . الى هؤلاء الجنودالمخلصين الذين كانوا ساعدى الأيمن (والأيسر أيضا) وهيأوا لى الفرصة لأن أقوم بالجهود التى قمت بها . ان لهم حقا أن يفخروا بالعمل المجيد الذى قاموا به . كما أوجه جزيل الشكر الى اللجنة التى أقامت هذا الحفل . أشكر سعادة رئيسها وسعادة أمين صندوقها وحضرات أعضائها وسكرتيرها النشيط المخلص الذى لم يأل جهدا فى تنفيذ القرارات التى اقترحتها اللجنة ، كما أنى أقدم أوفر الشكر لسعادة عميد الكلية ومجلس الجامعة الموقرين على القرارات السخية التى تفضلوا باصدارها والتى طوقتنى بجميل لا أنساه سأذكره بالثناء ما دمت حيا .

وفى ختام كلامى أقدم أوفر الشكر لكلية الطب التى أدين لها بالفضل الجزيل على ما طوقتنى به من جميل ، طالبا وطبيبا وأستاذا ووكيلا ، راجيا لها مستقبلا حافلا بالمجد فى ظل حضرة صاحب الجلالة راعى العلم مليكنا المعظم الذى من روحه الوثابة تسرى الينا روح التقدم والنشاط والتجديد فى ميادين العمل طالبا من المولى عز وجل أن يديمه للعلم ذخرا ولمصر والشرق قائدا ومرشدا وملاذا وأن يقر عينيه بأمته كما قرت به عينا واطمأنت خاطرا .

(٢) كلمته فى الاحتفال بعيد العلم (١٩٦٠)

سـيدى الرئيس :

انى أشعر حقا بعجزى عن أن أجد الكلمات التى أستطيع بها التعبير عما يجيش بصـدرى ، من الشكر لسيادتكم على الشرف الذى أسبغته على اليوم ، وأؤكد لكم أن تسلمى الجائزة من يديك الكريمتين جعل هـذه اللحظة من أسعد اللحظات فى حيـاتى •

وأرجو يا سيدى أن تأذن لى بهذه المناسـبة ، أن أقدم أخلص الشكر ، الى السيد الجليل نصير العلم كمال الدين حسين رئيس المجلس الأعلى للعلوم ، والسـادة أعضـاء المجلس ، ولمديرى وأعضاء مجالس ادارة جامعة القاهرة ، والاتحاد العلمى العربى ، وكلية طب القاهرة ، الذين أتاحوا لى فرصـة تلقى هذا الشرف من يديك الكريمتين •

سـيدى الرئيس :

ان عيد العلم الذى نحتفـل به كل عام هو يوم من الأيام الخالدة فى تاريخ الجمهورية • فهو السجل الحى الذى يظهر مدى النشاط العلمى الذى يقوم به خدام العلم • لقد أتى زمن تخلفت فيه بـلادنا عن ركب المدنيـة الى حـين • وهى البـلاد التى استطاعت ، فى فجر التاريخ ، أن تحمل وحدها شعلة العـلم

والمدنية ، وأن تبقيها موقدة آلاف السنين ، تنقلها الى الأجيال المتعاقبة ، تراثا ، متطورا ، من جيل الى جيل • ثم أتى زمن تعاقبت عليها فيه الأحداث ، والثورات ، والغزوات الغاشمة ، فسقطت الشعلة من يديها ، فتلقفها اليونان ، ثم الرومان • ولكن أسس العلم ، ظلت كامنة فى نفوس الكهنة المصريين ، حتى اذا استقلت البلاد تحت حكم بطليموس ، تأسست مدرسة الاسكندرية ، وصارت مركز العلم الوحيد فى العالم كله • وكان أساتذتها ، وخريجوها ، رجالا مشهورين مثل أرشميدس ، واقليدس ، وجالينوس ، آشهر أطباء العهد القديم على الاطلاق • وهو الذى وضع أسس الطب على قواعد علمية متينة خالية من الخرافات • وكان أجل ما يفخر به هذا العالم الفذ ، أنه تلقى العلم ، تحت أقدام الكهنة المصريين • وقد بقيت مدرسة الاسكندرية ، لعدة قرون ، مركز الطب والثقافة • وكانت لاتزال زاهرة ابان الفتح العربى • وفيها تخرج يوحنا الجراماتيقى ، وهو أسقف مصرى كتب كتبا رائعة وامتد به الأجل حتى الفتح العربى • وكان العرب يسمونه يحيى النحوى • وكان من أقرب المقربين الى عمرو بن العاص • ويقول عنه ابن أبى أصيبعة ان تعاليمه كانت أول وأغنى مصادر الطب عن العرب • ولما انتهى العرب من فتح الممالك المجاورة ، وثبتوا قواعد الدولة ، أخذوا فى ترجمة المؤلفات اليونانية وغيرها الى اللغة العربية • وكان القرن الأول فى تاريخ العباسيين فريدا فى التاريخ • فلم يأت

آخره حتى كان العرب مالكين لجميع العلوم المعروفة ، من يونانية ، وفارسية ، وهندية • ولا يتسع المجال لذكر الذين تفوقوا فى عهد النهضة العربية ، ومما يحسن ذكره أن العرب منذ بدء نهضتهم انتفعوا بالكفاءات أنى وجدوها ، فاحتضنوا العلماء مهما اختلفت عناصرهم ، وضموهم الى صفوفهم وجعلوا منهم مواطنين ، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم • ولما دبت عوامل التفرقة فى صفوف العرب انتقلت شعلة العلم الى أوربا واحتفظت بها أممها ورفعوا راية العلم عالية الى اليوم • وقد وضعتم سيادتكم اصبعكم على موطن الخطر ، اذا تركت الأمم القوية تحتكر العلم • فعملتم على نصرته ، وجعلتم من جامعاتنا قلاعا نحارب منها فى معارك العلم •

ولا حاجة بى الى ذكر ما قام به المصريون فى العصر الحديث من البحوث القيمة ، التى نشروها فى أمهات المجلات الأجنبية ، أو فى المؤتمرات التى عقدت فى مصر أو خارجها ، أو من الكتب القيمة التى كتبوها وترجمت الى لغات متعددة ، وحازت تقدير العالم العلمى • ولا أرى مناصا من القول بأن مما ساعد على بلوغ هذا النجاح ، هو النهضة المتوثبة التى تغلغلت فى نفوس المصرين ، ورغبتهم الأكيدة فى أن يكون لهم نصيب فى حمل شعلة العلم •

سـيدى الرئيس :

ان جل ما اطلبه من المولى عز وجل هو ان يجعل جهادكم فى سبيل البــلاد وجهودكم فى ســبيل العلم مقرونة بالنجــاح والتوفيق .

(٣) موضوع من موضوعات الانشاء التى كتبها نجيب محفوظ فى عهد التلمذة

« الناس رجلان رجل يرى الخيرات مباحة للجميع وعنوان كل مطلب ، من جد وجد فيسعى ويجد ويشمر عن ساعد الجد فيصبح وقد انفتحت لديه كنوز الفلاح وانكشفت أمام عينيه اسرار النجــاح فيدأب على العمل بهمه لا تعرف الملل وعزيمة لا يضعفها الفشل قائلا مع من قال :

ذرينى انـل ما لا ينــال من العـلى
فصعب العلى فى الصعب والسهل فى السهل
تريـــدين ادراك المعــــالى رخيصــة
ولابـد دون الشـــهد من ابـر النحـل

وآخر يرى بينه وبين الخيرات بونا عظيما فيقفل راجعــا عن طلبها وينقلب متقهقرا عن طرق بابها فيصبح وقد غدت لديه وجوه النفع مردودة وأبواب السداد مسدودة .

واذا سألته عن علة تأخره وسبب تقهقره أجابك أن الله

يرزق الانسان بالخيرات عفوا من دون أن يسعى اليها سعيا حثيثا ولكن ألم يعلم أن من دلائل العجز كثرة الاحالة على المقادير وأن المرء مكلف شرعا بأن لا يقعد عن اكتساب العلى • أجل • ولكنه لم يعرف أن بالعمل تدرك الآمال وبقدر الجد تكتسب المعالى ولم يصغ الى قول الشاعر :

لا تحسب المجد تمرا انت آكله
لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

فاعتبر أيها المتهامل بمن يواصلون العمل بهمة لا تعرف الملل هل زلت بهم الأقدام أم أسفوا على الاقدام أم ندموا كما يندم المتهاملون أم تأوهوا كما يتأوه المتكاسلون كلا سوف يبتهجون ثم كلا سوف يبتهجون وسيعلم المتكاسلون أى منقلب ينقلبون » •

امضاء الأستاذ وتعليقه :

« شيء كنت أنتظره منك »

« وقد حقق الله ظنى فيك »

« ولكل اسم من مسماه نصيب »

محمد حامد

الباب الخامس

آثار نجيب محفوظ العلمية

لاشك أن علماء النساء الذين تتلمذوا على محفوظ باشا هم أبرز الآثار الحية من آثاره العلمية ومع هـذا فان نجيب محفوظ لم يكتف بان يكون أستاذا فحسب ، ولكنه ترك آثارا يتتلمذ عليها من لم يدركوه •

وسوف نتحدث فى هذا الباب عن ثلاثة انجازات لمحفوظ باشا هى أطلسه ومتحفه ومراجعه •

فأما الأطلس فبوسعك أن تقول انه نتاج خمس وأربعين سنة فى ممارسة وتدريس هذين الفنين ، ويقع هـذا الكتاب فى ثلاثة أجزاء من الحجم الكبير وبلغت صفحاته ١٥٠٠ صفحة وصوره ٧٢٣ صورة معظمها بالألوان مأخوذة كلها من متحفه ومن القطاعات المكرسكوبية التى أخذت من العينات •

وقبل أن يقدم الدكتور محفوظ باشا على طبع هذا الكتاب رأى من الحكمة أن يستوثق من نفع الكتاب وأن يطلب رأيا محايدا فطلب من السير كومنز باركلى وهو يومها من أساطين أساتذة أمراض النساء والولادة فى العالم أن يقرأ أصول الكتاب

ويفحص صوره ويبدى رأيه فيه بلا مجاملة ولا محاباة وقد قام سير كومنز بهذا العمل وأرسل الى الدكتور محفوظ باشا خطابا جاء فيه :

« تسألنى رأيا صريحا لا مجاملة فيه ولا محاباة عن كتابكم الذى تنوون نشره ، وها أنا أبدى رأيى فيه . وهـذا الرأى يشمل اعتبارات ثلاثة وهى :

١ ـ النفع العلمى .

٢ ـ حاجة العالم اليه .

٣ ـ المسألة المادية .

أولا : أرى أن الكتاب كأداة تنقل الى العالم معلومات قيمة عن الولادة وأمراض النساء هو كتاب فذ مدهش وأقول بصراحة انه لم يظهر فى كتب الولادة وأمراض النساء مثيل يعادله الى اليوم ، وهى كلمة أقولها بمنتهى الصراحة .

ثانيا : ان هذا الكتاب لا يصلح لحصول القارىء على معلومات طريفة فى هذين الفنين فحسب ولكنه سيكون أداة كبيرة فى يد المعلمين لتلقين الطلبة هذين العلمين وسيبقى هـذا الكتاب دائما من الكتب الخالدة .

ثالثا : من الوجهة المادية أرى ان كتابا من هـذا النوع ستبلغ تكاليفه حدا باهظا لا ينتظر أن تغطيه مبيعات نسخه .

فالكتب التى من هـذا النوع تقوم بها المعاهـد والجامعـات لا الأفراد • ولكنى أرى أنك كطبيب عالمى له شهرة كبيرة فى كل مملكة من ممالك العالم يهمك أن يقرن اسـمك بعمل مجيد كهذا سواء أدى الى كسب مادى أو الى خسارة مهما بلغت ، ثم ان نشر هـذا الكتاب سيكون لانزاع سببا فى شهرة عظيمـة تنالها بلادك وجامعتك ، وأظنـك لا تتأخر فى أن تضـع على هامة جامعتك التى هى أمك الروحية أكليلا من المجد » •

وقد حفز هـذا الخطاب الدكتور محفوظ باشا الى طبع الكتاب على نفقته الخاصـة غير مدخر مالا فى اصداره على أكمل وجه ، وحتى يعم نفعه فى جميع أنحاء العالم وكدعاية لبلاده رأى الدكتور محفوظ باشا أن تكون جميع الشروح المكتوبة تحت الصور بجميع اللغات الحية وقد كتب تلك الشروح بسبع لغات هى : العربية والانجليزية والفرنسية والألمـانية والروسية والايطالية والأسبانية •

وهذه بعض آراء علماء النساء فى أطلس محفوظ :

١ ـ فى خطاب بتاريخ ١٢ يونيو سنة ١٩٤٩ كتب السير أردلى هولاند Eardley Holland رئيس كلية أطباء النسـاء والمولدين بالمملكة المتحدة ما يأتى :

اننى فخور بحصولى على الجزء الأول من كتابك العظيم Magnum Opus وقد قرأت كل صفحة من صفحاته ودرست

بعناية كل شكل من أشكاله وقد كان اعجابى به يتزايد كلما توغلت فى قراءته حتى بلغ حدود الاعجاب ــ ان كتابك بدون شك أعظم كتاب ظهر فى أمراض النساء والولادة الى اليوم ويفوق بمراحل أى كتاب ظهر فى المملكة البريطانية أو الألمانية أو فى الولايات المتحدة بأميركا وانه أثر خالد لحياتك المليئة بالأبحاث العلمية الفذة والتعمق العلمى • وفى كتابك هذا يتمثل الفن الراقى والعلم المتين والثقافة العلمية • انه قد أعاد الى ذاكرتى الأيام السعيدة التى أمضيتها فى دراسة النماذج بمتحفك عديم النظير بالقاهرة • ان هذا الكتاب سيزيد شهرتك العالمية ويرفع شأن كلية الطب بمصر فى العالم أجمع » •

وكتب السير أردلى هولاند عن الجزء الثانى فى خطاب آخر :

« انى ملىء عجبا بالجزء الثانى وأعتبره فى بعض النواحى أشد ايثارا للاعجاب من الجزء الأول ولعل ذلك لاحتوائه على الأبحاث الفذة التى أنالتك الشهرة العالمية الكبيرة مثل النواسير البولية والثفلية والبلهارسيا والأورام الليفية والحمل خارج الرحم • ان أى جراح فى العالم يقرأ هذه الفصول لابد أن يشعر بأن معلوماته عنها قد ازدادت وأن معضلاتها قد حلت ولابد أن يتأثر أسلوبه الجراحى فى العمليات التى شرحتها تأثيرا كبيرا • أما الأشكال التى فى الكتاب فلم تقع عينى على مثلها

قبل اليوم ولا على مثل الوصف الذى تلحقه بها والبحث الذى تخص كل صورة به ٠

٢ — وجـاء فى خطـاب من لورد الفردوب جونسـون Lord Alfred Webb Johnson رئيس كلية الجراحين الملكيـة بلوندرة فى ٣ يونيو سنة ١٩٤٩ عن الجزء الأول ما يأتى :

« ان العمل العظيم الذى قمت به بوضعك هـذا المؤلف كتب له الخلود منذ اليوم ٠ وسيكون هذا الكتاب سببا فى أن تطريك الأجيال المقبلة أيما اطراء وسيبقى لأجيال عديدة أهم مرجع فى الولادة وأمراض النساء ٠ اننى عندما تصفحت الجزء الأول من كتابك ودرسته بعناية كان يخيل الى أننى جالس اليك نتحادث معا وقد أثارت قراءته فى نفسى اعجابا للسنين الطويلة التى صرفتها فى الدرس والعمل حتى حصلت على الخبرة التى مكنتك من الاضطلاع بهذا العمل العظيم ٠

وفى خطاب آخر أرسل فى ١٦ ديسمبر سنة ١٩٤٩ — بعد ظهور المجلد الثانى قال الأستاذ جونسون :

« ان المجلد الثانى من موسوعتك العلميـة آية فى الفن وتستطيع اليوم أن تقول ما قاله المهندس المعمارى الانجليزى الكبير المستر رين عندما أخـذ فى بنـاء كاتدرائيـة سان بول « اننى أبنى للأبدية والخلود » ٠

لقد جعلت العالم الطبى بتمامه جراحيه وأطبـاء أمراض النساء فيه مدينين لك دينا لا يستطيعون وفاءه » .

٣ — وفى خطاب من السير فلتشرشو عميد كلية المولدين سابقا :

« أخبرنى ناشرو كتابك أنهم باعوا من نسخه عددا هائلا ويسرنى أن مجـلات أمريكا المهمة قد قرظته تقريظا مدهشـا وقريبا جدا يصدر المجلد الثالث .

واذا كان هـذا المجلد فى درجة المجلدين السابقين وهو ما لاشك فيه ، فان كتابك هـذا سيكون أثرا خالدا يشـهد بتفانيك فى خدمة العلم الذى جعل لك شهرة عالميـة مـلأت الآفـاق » .

٤ — وفى خطـاب بتـاريخ ١٩٤٩/٧/٩ من المسـتر فيكتور بونى (Victor Bonney) « ان كتابك عظيم وسيكون عميم الفائـدة وسيبقى أثرا خـالدا لعملك ، انـه انتـاج فذ لا يستطيع أحد أن ينافسك فى مضماره » .

٥ — وفى خطاب بتاريخ ٥ يونيو سنة ١٩٤٩ من دكتور جرينهل Dr. Greanhill مؤلفات كتاب Year Book « انى أهنئـك على هـذا الكتاب الهـائل انه ملىء بالآراء

الناضجة وسيكون نجاحه كبيرا أما أسلوبه فجميل واضح وصوره غاية فى الاتقان الفنى » •

٦ ـ وفى خطاب من الأستاذ يونج Prof. J. Young بتاريخ ٢٤ يونيو ١٩٤٩ : « أهنئك قلبيا ان الكتاب فخم وفى Most Oustanding & Sumptuous أقصى درجات الامتياز » •

٧ ـ ونشرت مجلة نيتشر «Nature» ١٧ سبتمبر سنة ١٩٤٩ تقريظا للكتاب جاء فيه أ

« هذا هو الجزء الأول من الموسوعة العلمية التى أصدرها محفوظ باشا والتى أصبحت بحق أهم ما كتب فى الولادة وأمراض النساء الى اليوم •

والمؤلف من أكبر الأطباء الذين خدموا فن الولادة وأمراض النساء بأبحاثهم العلمية الفذة التى أدت الى تقدم حقيقى فى هذين الفنين • وهو ذو مقدرة فائقة فى الجراحة وله شهرة عالمية كبرى وقد كتب المتن باللغة الانجليزية • أما الشروح التى كتبت للصور فمكتوبة بسبع لغات • وليس هذا الكتاب مجموعة لما كتبه الغير ، ولكنه يشرح آراء المؤلف المبنية على الخبرة الواسعة وهو مكتوب بلغة سلسة منطقية تساعد أساتذة الولادة فى محاضراتهم والطلبة فى

دراستهم وأرى أنه يتحتم على كل أستاذ من أساتذة أمراض النساء أن يحصل على نسخة من هذا الكتاب .

٨ ـ وقال الأستاذ نكسون بعد أن حلل طريقة تأليف الكتاب وعرض الحالات فيه : « ويعد هذا الكتاب مرجعا لعلمى الولادة وأمراض النساء وسيظل بمثابة نصب تذكارى لشخص يعتبر من أبرز الاخصائيين فى أمراض النساء فى العالم » .

أما متحف محفوظ ، وهو العمل الثانى ، فشىء لايزال له سحره الى اليوم ، وعلى خلاف الحقيقة القائلة أن المؤلفات العلمية تقل قيمتها مع الزمن ، فان متحف محفوظ لايزال بعد المتحف الأول من نوعه فى العالم ، والجهد الدءوب الذى بذله فيه عالمنا طيلة السنوات الطوال لم يذهب ولا حتى بعضه القليل أدراج الرياح ، انما هو قائم يدل دلالة أخرى على الخلود كيف يتاح للأعمال التى لم يبخل عليها صاحبها بالاتقان .

ويروى الدكتور محفوظ أنه قد أخذ فى الاستعانة بالعينات الباثولوجية فى محاضراته على الطلاب ، وكان يواجه بعض صعوبات « فكان لزاما على أن أذلل تلك الصعوبات بنفسى فعمدت الى تحضير نماذج Specimens بعيادتى الخاصة واشتريت لذلك ثلثمائة وخمسين (برطمانا) زجاجيا من فرنسا لايداع العينات من الخارج أيضا وبعد بضع سنين من عمل

متواصل أتممت تحضير ثلثمائة عينة من عملى الخاص وكنت أحضرها معى أثناء التدريس للطلبة وأخيرا أودعتها غرفة خالية بمدرسة الطب . واتفق أن سافرت عقب ذلك الى أوربا صيفا وفى أثناء غيابى خطر لأحد أصدقائى المساعدين فى قسم الباثولوجيا أن يؤدى لى خدمة بأن يستعيض المحاليل الموضوعة فيها النماذج بسائل آخر اكتشفه هو ، وكان يعتقد أنه يفضل السوائل التى اعتدت استعمالها ، فلما عدت من سفرى وجدت أن الثلثمائة عينة التى بذلت فى جمعها الجهد والزمن قد اعتراها التلف ودب فيها الفساد فصارت لا تصلح لشىء فأخذت فى اعداد نماذج جديدة غيرها كابدت فى جمعها الكثير من المتاعب » .

« وقد عرضت هذه النماذج فى المؤتمر الطبى الذى عقد بمدينة القاهرة عام ١٩٢٩ بمناسبة مضى مائة سنة على تأسيس مدرسة الطب المصرية فأشار الكثيرون من العلماء الذين حضروا المؤتمر على مدير المدرسة أن يخصص غرفة تصلح لحفظ هذه النماذج ولتكون نواة لمتحف خاص بأمراض النساء والولادة ، وقد تم ذلك . ثم داومت على تغذية المتحف بالنماذج حتى بلغت ١٥٠٠ نموذج ، ثم رأيت أن أعرض على مدرسة الطب وقد صارت كلية تابعة لجامعة فؤاد الأول فى سنة ١٩٣٠ أن أقدم

لها هـذا المتحف كهدية فقبلته • وقد بذلت جهدى فى القيام بوصف كل العينات وصفا دقيقا ، ووضعت وصف كل نموذج فى اطار زجاجى خاص معلق بجانبه ثم أخذت من الأورام قطاعات ميكروسكوبية وعملت لها صورا فوتوغرافية وضعتها فى اطارات خاصة ، ونشرت بعد ذلك دليلا للمتحف قامت الكلية بطبعه وقد نفدت نسخه جميعها ، ثم قمت بتحضير صور للنماذج كثير منها بالألوان وصورت بعضها بالفوتوغراف • وأرفقت الرسـوم بالشرح • وقد قسمت المتحف الى ثلاثة أقسام أحدها للولادة الطبيعية والمتعسرة والأمراض النسائية والأمراض التى تصيب الحوامل والوالدات ، والقسم الثانى ويشمل تشريح الأعضـاء الحوضية فى حالتى الصحة والمرض أما القسم الثالث فخـاص بالأجنة (المتلهوجة) ويشمل كل الأحوال الشاذة المعروفة حتى اليوم •

ويحدثنا الأستاذ الدكتور سرور بك أستاذ الباثولوجيـا الكبـير الذى كان من حظ الدكتور محفوظ أن يتـابع معـه باثولوجيـات النماذج عن جهـد الدكتور محفوظ فى انشـاء المتحف فيقول :

« كانت أول معرفتى بالدكتور محفوظ (كأستاذى) لأمراض النساء والولادة عام ١٩٠٨ عندما كنت طالبا بمدرسـة الطب •

وبعد تخرجى ثم عودتى من الارسالية عام ١٩١٩ اشتغلت بقسم الباثولوجيا وهنا ابتدأت صلتى القريبه به •

« كان الدكتور محفوظ باشا أكثر الجراحين زيارة لقسم الباثولوجيا باحثا مدققا وكثيرا ما كان يحمل بنفسه النماذج المرضية والأورام المأخوذة من عملياته الجراحية فى أمراض النساء والولادة الى المعمل ، فكنا نعكف على درسها بالعين المجردة ثم يتركها ليعود ثانية ليرى بنفسه المظاهر المكروسكوبية من هذه العينات مع ما يصحب ذلك من المناقشات العلمية ومراجعة المؤلفات العديدة ، وكانت نتيجة ذلك أن هذا الجراح العظيم أصبحت له القدرة على أن يصبح تشخيصه الاكلينكى مرآة صادقة لما يظهره الفحص الباثولوجى والتشخيص الميكروسكوبى ومتفقا معه تماما بدرجة من الدقة كانت تجعلنى أهتز عجبا لتشخيصه المدهش !

« وقد كان اهتمام محفوظ باشا (ليس فى زيادة عدد العينات) بل فى انتقاء اللائق منها وشرحه شرحا دقيقا وتبويبه بحسب العضو المصاب • وقد استعمل العينات فى محاضراته وبنى عليها أبحاثا نشرت فى مقالاته العديدة مثل تمزق الرحم الحامل والحمل خارج الرحم والأورام الليفية وأورام الرحم والنواسير البولية والنواسير الثفلية والسرطان السلائى ••• الخ •

« ومما يحسن ذكره فى هـذا المجال أن محفوظ باشا كان يحمل هذه العينات الى المتحف بنفسه ليتتبع تحضيرها بنفسه من الألف الى الياء ويشرحها (شرحا دقيقا) . ومتى تم تحضير العينة كنا نبوبها فى الدليل بعد أخذ قطاعات مكروسكوبية منها وكنا بعد ذلك نعنى بتدوين الشرح ونرصده فى الدليل بكل عناية ، وكانت النتيجة أن محفوظ باشا كان يعرف كل عينة معرفة دقيقة ولا تخفى عليه دقيقة من دقائقها وقد استمر على العناية الفائقة بهذا العمل حتى بعد نواله ما نال من الشهرة العالمية . وانى أذكر بالسرور أنه كان يدعونى الى حضور عملياته لأرى بنفسى علاقات الأورام وغيرها فى حالتها الطبيعية والمراحل التى توصل الى التحضير النهائى للعينة وكان يحبب الى أن أشاهد المريضات قبل العملية وبعد الشفاء » .

وفى عبارات أخرى يروى الدكتور رشدى اسماعيل القصة على النحو التالى :

من الأمور التى استلفتت نظرى بصفة خاصة منذ بدأت عملى بالمستشفى القبطى مع صـديقى وأسـتاذى الدكتـور محفوظ باشا ، عنايته الفائقة بارسال كل ما نحصـل عليه من الأورام أو متحصلات عمليـات الكشف أو غيرها الى زميله الأستاذ سرور بك لفحصها وتقديم تقرير واف عنها ، ولهـذه التقارير سجل خاص عنده يعنى بترتيبه والرجوع اليه ، والدكتور

سرور زامل الدكتور محفوظ باشا نيفا وثلاثين عاما ، جلسا معا فى معمل الباثولوجيا يفحصان بعدسات المجهر ما دق من خلايا الأورام والأمراض ، إنكبا معا على الكتب والمؤلفات قديمها وحديثها يقتلانها بحثا وتنقيبا ، وعكفا يسجلان نتائج أبحاثهما ويقيدانها ، وطالما سمعنا من الأستاذ الدكتور محفوظ باشا كيف أخذت صلتهما تزداد توطدا يوما بعد يوم ، وكان يزوره محفوظ باشا بغير انقطاع فى معمله فى الأثناء التى كانا يحضران فيها بحثهما القيم عن الأورام المبيضية الذى قدمـــاه للمؤتمر المئوى لمدرسة الطب الذى عقد بالقاهرة عام ١٩٢٩ ثم ما تلا ذلك من الأبحاث التى نشرها محفوظ باشا ، ثم بلغت هذه الصلة أتمها عندما أخذ محفوظ باشا فى وضع موسوعته الأخيرة التى ضمت عددا عظيما من الصـــور الميكروفوتغرافية ازدان بهـــا الكتـــاب .

ويعتز الدكتور محفوظ بما ورد فى التقرير الذى قـــدمه السير أردلى هولند وكان رئيسا لكلية المولدين وأطباء أمراض النســـاء الملكيـــة بلندن والذى انتدبته الحـــكومة المصريـــة سنة ١٩٤٥ ليضع تقريرا عن أقسام الولادة وأمراض النســـاء بكليتى القاهرة والاسكندرية وقد جاء فيه ما يأتى :

« ان أى تقرير عن كليات الطب المصرية لا يكون كاملا اذا خلا من الاشـــارة الى المتحف النـــادر المثال الذىأهـــداه

الدكتور محفوظ باشا الى كلية الطب والذى بلغت نماذجه أكثر من ثلاثة آلاف نموذج مشروحة كلهـا شرحا علميـا وافيـا فى خمسة وعشرين مجلدا . ولاشـك مطلقا فى أن متحفا كهـذا لا نظير له فى العـالم أجمع لا من ناحية النمـاذج النادرة التى احتواها فحسب بل من ناحية البحث العلمى الدقيق لكل نموذج فيه ، الأمر الذى يجعله مرجعا علميا ممتازا ذا مركز هام للتقدم العلمى ، ولى كل الأمل فى أن تعمل الحكومة الترتيبات اللازمة للمحافظة على هـذا المعهد لاستمرار تقدمه ودوامه وأن يصبح موردا تستمد منه المتاحف العلمية الأخرى النماذج المكررة حتى يعم نفعه » .

وهـذا هو ما حدث بالفعل فقـد استعانت كليتـا الطب الناشئتان فى الاسكندرية وعين شمس بنماذج من هذا المتحف بل امتدت الافـادة من عينـاته الى كليتى غوردون بالخرطوم والكلية الملكية للجراحين فى لندن .

وكان قد تقرر فى أثناء عمادة الدكتور شوقى باشا وضـع تصميم خاص لبناء مستقل لمتحف نجيب محفوظ .



الباب السادس

ببليوجرافيا

الفصـــل الأول

مؤلفات نجيب محفوظ

أولا : كتب فى الطب باللغة العربية

١ ــ فن الولادة ، الطبعة الرابعــة ، ١٩٥٨ ، (صــــدرت الطبعة الأولى سنة ١٩٠٥ من ٧٣٠ صفحة) .

٢ ــ أمراض النساء العملية (الطبية والجراحية) .

٣ ــ مبادىء أمراض النساء الطبعة الرابعة (١٩٥٨) . صدر قبله أمراض النساء .

٤ ــ الثقافة الطبية والطب النسوى عند العرب .

ثانيا : كتب فى الأدب باللغة العربية

٥ ــ حيــاة طبيب .

ثالثا : كتب فى الطب باللغة الانجليزية

6. The History of Medical Education in Egypt.
7. Mahfouz Atlas — 3 Volumes.

رابعا : مقالات وكلمات تذكارية

ــ كلمته فى تكريم على باشا ابراهيم فى الاحتفــال بيوبيله الستين ــ المجلة الطبية المصرية ، ١٩٤٠ ، ص ٩٦٥ .

خامسا : بحوث طبية فى لغات مختلفة

١ — التعديلات والتحسينات التى ادخلها على عملية « الكسندر آدامز » لتقصير الأربطة المبرومة فى علاج انثناء الرحم الى الوراء .

1. The Treatment of Retroflexion of the Uuterus by a modified method of shortening of the round ligaments. Transaction of the Khedivial Society 1908 (French).

٢ — العملية القيصرية ، وكيف يجب ان تعمل فى الحالات التى تكون العفونة فيها قد تطرقت الى الرحم .

2. Caesarian Section when the uterus is infected. The Egyptian Medical Review 1917, 1st. Year No. 5 Page 1 (Arabic).

٣ — الاخطاء التى يمكن حصولها فى تشخيص الحالات الغامضة من الحمل خارج الرحم وكيف نتوقاها « المجلة الطبية المصرية سنة ١٩١٧ » .

3. The difficulties met with in the Diagnosis of certain cases of Ectopic Prepnancy. The Egyptian Medical Review 1917, 1st. Year No. 1 Page 34 (Arabic).

٤ — استعمال التخدير النصفى فى عمليات الولادة وامراض النساء — ١٨٠٠ حالة — وتعليق رئيس تحرير مجلة « اللانست » الطبية The Lancet

4. The Routine use of Stovaine Spinal Analgesia in Synoecology. The Lancet, August 3, 1918, Page 141 and Annotations, P. 150.

٥ — التخـدير النصفى بالستوفايين فى الولادة وامـراض النسـاء . « المجـلة الطبيـة المصريـة سنة ١٩١٨ صفحة ٢٤١ » .

5. Spinal Analgesia in Synoecology & Obstetrics. Egyptian Medical Review 1918 2nd. Year No. 7 Page 241 (Arabic).

٦ — تاريخ الولادة وامراض النساء من اقـدم العصـور الى اليوم ، مع شرح تفصيلى دقيق لما تم فى عهد العـرب ، « المجـلة الطبية المصريـة سـنة ١٩٢٠ صفحة ١٥٨ » .

6. The History of Cynoecology & Obstetrics with special reference to the Arabian Era. The Egyptian Medical Review 1920 3rd. Year No. 5 Page 158 (Arabic).

٧ — علاج العقم عند النسـاء . « المجلة الطبية المصريـة سنة ١٩١٤ صفحة ٣٣٩ » .

7. The treatment of Sterility in Women. The Egyptian Medical Review 1924 7th. Year No. 6 Page 338 (Arabic).

٨ — امراض الرحم الخبيثة (مع الدكتور انيس انسى) . « المجلة الطبية المصرية سنة ١٩٢٦ » .

8. Malignant Disease of the Uterus (with Dr. Anis Onsy). The Egyptian Medical Review 1926, 9th. Year, No. 6, Page 399 (Arabic).

٩ — استعمال البتيوترين فى الولادة — اخطـاره على الأم

والجنين . « المجلة الطبيـة المصريـة سـنة ١٩٢٨
صفحة ١٧٨ » .

9. The use of Pituitrin in Obstetrics. The dangers to mother & foetus. The Egyptian Medical Review 1928, 11th. Year, No. 3, Page 179.

١٠- العملية القيصرية والمقارنة بين الطرق المختلفة (دوبين ومحفوظ)شرح تفصيلى ومقارنة لخمسين حالة عملت فى الجزء العلوى للرحم وخمسين حالة فى الجزء السفلى للرحم . « نشرت فى سجلات المؤتمر الدولى » .

10. Caesarian Section — A series of 100 consecutive cases 50 upper and 50 lower uterine segment (with Prof. Dobbin).

١١- الأورام والأكيـاس المبيضية - بحث دقيق عن ٣٥٧ حـالة . « نشر فى مجـلة الولادة وأمراض النسـاء للامبراطورية البريطانية سنة ١٩٢٩ . المجلد رقم ٥ ».

11. Ovarian Cysts & Tumours — A study of 357 cases. The Journal of Obstetrics & Gynoecology of the British Empire, Vol. 36, No. 3, Year 1929.

١٢- النواسير البولية والنواسير التى تحدث بين المستقيم والمهبل . « نشرت فى مجلة الولادة وامراض النساء للامبراطورية البريطانية سنة ١٩٢٩ المجلد رقم ٣ » .

12. Urinary and Foecal Fistulae in Women. The Journal of Obstetrics & Gynoecology of the British Empire,

١٣- بحث جديد فى النواسير البولية عند النساء . « نشرت فى مجـلة الولادة وامـراض النسـاء للامبراطوريـة البريطانية سنة ١٩٣٠ صفحة ٥٦٦ » .

13. Urinary Fistuloe in Women. The Journal of Obstetrics & Gynoecology of the British Empire, Vol. 37. No. 3 Autumn 1930 Page 566.

١٤ـ علاج المضاعفات التى تنشأ عند النساء بسبب العدوى بالسيلان . « المجلة الطبية المصرية سنة ١٩٣١ المجلد ١٤ ، الصفحة الأولى » .

14. The Treatment of Chronic Gonorrhoeal Complications in Women. The Egyptian Medical Review, Jan. 1931 Vol. 14. No. 1.

١٥ـ الطرق الحديثة فى اتقاء وعــلاج الحمى النفاسية . « المجلة الطبية المصرية سنة ١٩٣١ صفحة ٥٦٠ » .

15. Recent Advances in the Prophylaxis and Treatment of Puerperal Sepsis. (Read before the Egyptian Syrian Congress, July 1931) (English). Journal of Egyptian Medical Association, Nov. 1931, Pages 560 — 566.

١٦ ــ بحث فى الأورام الخبيثة للأعضاء الحوضية فى القطر المصرى . « تلى ونشر فى سجلات مؤتمر سنة ١٩٣٤ » .

16. The Incidence and Course of Malignant Diseases of the Pelvic Organs (Read before the 5th Congress of the Egyptian Medical Association 1932).

١٧ـ بحث فى اســباب سقوط الرحم مع عرض قطاعــات تشريحيــة لخمسة احواض نسائية بمحتوياتها تبين التغييرات الباثولوجية فى هذا المرض « تلى ونشر فى ســجلات مؤتمر ســنة ١٩٣٢ وفى المجــلة الطبيــة المصرية » .

17. The Anatomy of Procidentia, with dissections of 5 pelves to demonstrate the pathological conditions met with in Procidentia. (Read before the 5th. Congress of the Egyptian Medical Association 1932).

١٨ــ علاج تمزق الرحم أثناء الولادة ، مع لفت النظر الى خطورة الجراحة في هذه الأحوال ، وكيفية اتقاء الأخطار .

وهذا البحث كان هو البحث المنتخب لافتتاح مؤتمر المائتى سنة للاتحاد الطبى البريطانى . « تلى بالمؤتمر ونشر بمجلة الولادة وأمراض النساء للامبراطورية البريطانية سنة ١٩٣٢ صفحة ٧٤٢ » .

18. ThTe Conservative Treatment of Rupture of the Uterus. (Read before the Centenary Congress of the British Medical Associatoin 1932) Journal of Obstetrics & Gynoecology Winter Uumber 1932 Page 743.

١٩ــ الجراحة التى ابتكرها « محفوظ » لوصل المثانة بقناة مجرى البول اذا انعدم عنق المثانة بسبب عسر الولادة . « مؤتمر الجمعية الطبية المصرية بأورشليم سنة ١٩٣٣ ونشر بالمجلة » .

19. A new procedure for restoring the function of the bladder when the neck of the latter has sloughed away as aresult of labour. (Read before the 6th. Congress of the Egyptian Medical Association Jerusalem 1933).

٢٠ــ ملاحظات عن أسباب سقوط الأعضاء التناسلية عند

النســـاء ، وهو المقـــال الذى افتتحت به الجمعيـــة الجراحية سنة ١٩٣٤ ونشر بمجلتها .

20. Some Observations on the Actioloyand Trlatment of Prolapse of the Pelvic Organs. (The Proceedings of the Surgical Society of EgyptJune 1934 Page 26).

٢١ـ اسلوب جراحى جديد ابتكره « محفوظ » فى عـــلاج النواسير بين العنق والمستقيم ، وكانت قبل ذلك غير قابلة للشـــفاء . « مجـــلة الولادة وامراض النســـاء للامبراطوريـــة البريطـــانية . مجـــلد ٤١ رقم ٥ صفحة ٣٧٩ » .

21. A New Technique in dealing with Superior Recto Vaginal Fistulae. (The Journal of Obstetrice & Gynoecology of the British Empire) Vol. 41, No. 4 Page. 59).

٢٢ـ الحمل خارج الرحم . « تلى هـــذا البحث فى كليـــة الدراسات العليا (هامرسمث) Hammersmith بلنـــدن ونشر فى مجـــلة الولادة وامـــراض النســـاء للامبراطوريـــة البريطـــانية . المجـــلد ٤٥ رقـــم ٢ صفحة ٢٠٩ » .

22. Ectopic Pregnancy. (Read at the Hammersimth Post-graduate College — London). Journal of Obstetrics & Gynoecology of the British Empire, Vol. 45, No. 2 Page 209).

٢٣ـ النواسير البولية والنواسير الثفلية عند النســـاء . شرح الجراحات الجديدة التى ابتكرها « محفوظ » « تلى هذا البحث بكلية الدراسات العليا بهامرسمث

بلنـــدن ونشر فى مجـــلة الولادة وامـــراض النســـــاء للامبراطوريـــة البريطانيـــة . مجـــلد ٤٥ رقـــم ٣ صـفحة ٤٠٥ » .

23. **Urinary & Foecal Fistulae. (My new techniques in dealing with them). Journal of Obstetrics & Gynoecology of the British Empire, Vol. 45, No. 3, Page 405). Read at he Hammersmith Post-Graduate College — London.**

٢٤— **الأخطاء الفنية** فى عملية لوسن تيت **Lawson Tait** والجراحة التى ابتكرها « **محفوظ** » **لاصلاح هـــذه الأخطاء** ، مع عرض فيلم سينمائى يبين **العملية وحالة** المريضة قبل الجراحة وبعدها (**القى هـــذا البحث** فى جامعة اكسفورد) .

24. **Technical faults in Lawson Tait's perinaeorrhapy. Colour film demonstrating my technique (35 minutes), (Read at Oxxford University).**

٢٥— الجراحات الجديدة التى ابتكرها « **محفوظ** » **لعلاج الأمراض التالية** ، **وقد** كانت تعتبر غير قابلة للشفاء :

(أ) زرع الحـــالب فى المثانة فى نواســـير القبوة عن طريق المهبل .

(ب) طريقة « محفوظ » فى اصلاح **المثانة عندما ينعدم جدارها** الخلفى مع الجدار المثانى المهبلى على أثر ولادة عسرة .

(جـ) طريقة « محفوظ » فى وصل المثانة **بقناة مجرى** البول عندما ينعدم عنق المثانة على **أثر الولادة**

العسرة . وعرض فيلم سينمائى بالألوان يبين خطوات هذه الجراحات وحالة المريضة قبل الجراحة وبعدها ويستغرق عرضه ٢٥ دقيقة .

25. New techniques for the following lesions which were hitherto considered inoperable.

    1) Transplantation ofthe ureter into the bladder by the vaginal route.

    2) Repair of the bladder in cases in which the entire base of the bladder had been lost through solughing of the anterior vaginal wall.

    3) Anastomosis of the bladder and urethra in cases of sloughing of the neck of the bladder. A colour film showing the different steps of the operation and thecondition of the patient before and after. (45 minutes).

٢٦- جراحتان مبتكرتان لشفاء النواسير الكائنة بين عنق الرحم وقبوة المهبل والمستقيم :

(أ) عمل الجراحة عن طريق المهبل .

(ب) عمل الجراحة عن طريق البطن .

مع عرض فيلم سينمائى بالألوان يستغرق عرضه ٣٢ دقيقة .

26. Two new techniques showing the steps of my operations for cure of recto-cervical fistuloe which were considered inoperable with colour films demonstrating the operations.

By the vaginal route.

(Colour film 33 minutes). (Read and demonstrated **at the** University of Oxford).

٢٧- محاضرة باللغة الفرنسية مع عرض سينمائى بالألوان فى جامعة « جنيف » يبين الجراحـات التى ابتكرها « محفوظ » لعلاج الناسور العنقى المستقيمى ، وقد كانت قبلا تعتبر غير قابلة للشفاء .

27. **Lecutres delivered at the** Geneva University (in **French)**.

   1) **The causation and** treatment of recto-vaginal **fistuloe.**

   2) **Demonstration** by colour film of my operations **for cases** hitherto considered inoperable.

٢٨- محاضرة وعرض فيلم سينمائى بالألوان عن الجراحات التى أجراها « محفوظ » لشفاء سلس البول ، فى قاعة محاضرات الجمعية الملكية .

28. **Lecture & film demonstrations** of all the new **techniques I devised for dealing** with conditions of **incontinence of urine that** were considered inoperable at **(The Royal** Society of Medicine).

٢٩- محاضرة باللغة الفرنسية مع عرض فيلم سينمائى عن الجراحات التى ابتكرها « محفوظ » لعلاج النواسير البولية التى كانت قبل ذلك غير قابلة للشفاء - بجامعة « لوزان » .

29. Lecture in French at Lausanne University. Description and demonstration of my new operations for the cure of conditions of incontinence of faeces that were considered inoperable with demonstration by colour films.

٣٠ـ المحاضرة السابقة ـ فى جامعة ادنبرة .

30. The same as 29. Delivered at the University of Edinburgh.

٣١ـ السرطان السلائى (مع الدكتور اسماعيل) . مجلة الولادة وامراض النســاء للامبراطووريــة البريطــانية سنة ١٩٣٩ .

31. Chorion Epithclioma (with Dr. Ismail). (Journal of Obstetrics and Gynaecology of the British Empire 1939).

٣٢ـ اورام الرحم الليفية (مع الدكتور مجــدى) مجــلة الولادة وأمراض النساء للامبراطورية البريطانية .

32. 32. Fibroids of Uterus (with Dr. Magdy). (Journal of Obstetrics & Gynaecology of the British Empire).

٣٣ـ النزف قبل الولادة (مع الدكتور مجدى) . مجــلة الولادة وأمراض النســاء للامبراطوريــة البريطانيــة سنة ١٩٤٠ .

33. Ante Partum Haemorrhage (with Dr. Magdy). (Journal of Obstetrics & Gynaecology of the British Empire 1940).

٣٤ـ السيلان عند السيدات فى المؤتمر الطبى العربى الثالث المجلة الطبية المصرية (فبراير ومارس ١٩٣٠) .

كتابات عن الدكتور نجيب محفوظ باشا

(١) **د. ابراهيم شوقى (باشا) :**

كلمته فى حفل سميراميس فى كتاب « الدكتور نجيب محفوظ كما نعرفه » ص ٣ — ٤ .

(٢) **د. ابراهيم باشا فهمى المنياوى** ص ١٠ — ١٢ .

كلمته فى حفل سميراميس فى كتاب « الدكتور نجيب محفوظ كما نعرفه » ص ٣ — ٤ .

(٣) **د. ابراهيم مجدى باشا :**

أستاذى نجيب محفوظ باشا ص ١٥ .

(٤ — ٦) **أحمد الصاوى محمد :**

— ما قل ودل الأخبار ١٩٦٣/٢/٢٩ .

— يوميات الأخبار .. حياة طبيب الأخبار ١٩٦٣/٩/١٢ .

— ما قل ودل الأخبار ١٩٧٤/٧/٢٩ .

أحمد عطية الله :

عظماؤنا فى عهد التلمذة . مقال نشر فى مجلة المصور

(٨ — ٩) **الأخبار :**

— دراسات أوسع الأخبار ١٩٦٠/٢/١٠ .

— حياة طبيب يقرؤه يحيى حقى الأخبار ١٩٦٣/١٠/٤ .

(١٠) أخبار الأكاديمية :

(تصـــدرها أكاديميـــة البحـث العـلمى والتكنولوجيا) رجال خدموا العلم فكرمتهم الدولة
أخبار الأكاديمية ١٩٧٢ .

(١١ ــ ١٣) أخبــار اليــوم :

ــ خمسون عاما فى بعث الحياة
أخبار اليوم ١٩٥٢/٤/١٩ .

ــ من هى الراقصــة المشــهورة التى كتب عنها الجراح العالمى نجيب محفوظ فى مؤلفه حيــاة طبيب . تحقيق صحفى
أخبار اليوم ١٩٦٣/٩/٢٨ .

ــ أول من اهتم بأمراض المرأة الخاصة
أخبار اليوم ١٩٧٤/٧/٢٧ .

(١٤ ــ ١٦) آخــر ســاعة :

ــ الدكتور نجيب محفوظ ينجح حيث فشل أطباء لندن
آخر ساعة ١٩٥٧/٢/٢٠ .

ــ الدكتــور نجيب محفوظ يحــاضر فى لنــدن
آخر ساعة ١٩٦٠/٩/٢١ .

ــ محاضرات فى الدنمرك عن الطب عند الفراعنة
آخر ساعة ١٩٦١/٣/١ .

(١٧ ــ ٢١) الأهــــرام :

ــ ٤٠ سنة طب وتجارب وذكريات
الأهــرام ١٩٥٩/٢/١٢ .

— صينية فضة للجراح الذى نال جائزة الدولة .. دكتور نجيب محفوظ يتبرع بـ ١٠٠٠ جنيه لنقابة الأطباء
الأهرام ١٩٦٠/١٢/٢٦ .

— ٢٢ طبيب ولادة عند نجيب محفوظ
الأهرام ١٩٦٤/٢/٢٧ .

— الدكتور نجيب محفوظ يجيب عن كل الأسئلة التى تحير كل حامل الأهرام ١٩٦٧/٣/٢٢ .

— وفاة الدكتور نجيب محفوظ رائد امراض النساء والولادة الأهرام ١٩٧٤/٧/٢٦ .

(٢٢) ايمـــاج :

Dr. Naguib Mahfouz Prix National Pour Les Sciences

١٩٦١/١/٧

(٢٣) دكتور بولجاكوف :

— كلمة مترجمة عن الانجليزية فى كتاب « الدكتور نجيب باشا محفوظ كما نعرفه » ص٢١ — ٢٢ .

(٢٤) جرجس حلمى عـازر :

— مع أول أستاذ لامراض النساء فى الشرق
وطنى ١٩٦٠/٢/١٤ .

(٢٥ — ٢٨) الجمهوريـة :

— جائزة الدولة فى العلوم للدكتور نجيب محفوظ
الجمهورية ١٩٦٠/٥/٢٦ .

— لمـاذا منحت الدولـة نجيب محفوظ الجـائزة التقديرية فى العلوم .. راى اما تموت فاقسم ان يهب حياتـه لكل الأمهـات
الجمهورية١٩٦٠/٥/٢٨ .

— من ارشيف العلم الجمهورية ١٩٦٠/٥/٣٠ .

— س و ج مع الدكتـور نجيـب محفـوظ
الجمهورية ١٩٦٢/١٠/١٢ .

(٢٩ — ٣٠) مجـلة الجيـل :

— فيلم ملون للدكتور نجيب محفوظ
الجيل ١٩٥٦/١/٢٣ .

— دمعـــة الجيل ١٩٦٠/١٢/١٩ .

(٣١) حســن شــاه :

الطبيب الفائز بجائزة الدولة يدعو لتحديد النسل
الأخبـار ١٩٦٠/٥/٢٨ .

(٣٢) حمـدى لطفـى :

ولد ؟ بنت ؟ ولد ؟ بنت ؟ المصور ١٩٦٢/٦/١ .

(٣٣) د. رشـدى اسماعيل :

الدكتـور نجيب محفوظ باشـا كمـا أعرفـه
ص ١٦ — ص ٢٠ .

(٣٤) زينب محمد حسـين :

رجـل عـاش لينقذ الأمهـات والمواليـد
مجلة الاذاعة ١٩٦٠/٦/٤ .

(٣٥) **سـليمان عزمى باشا :**

كلمته فى الحفل الذى اقيم لتـكريم نجيب محفـوظ ، من كتـاب الدكتـور نجيب محفوظ ص ٥ ــ ٧ .

(٣٦) **صـلاح جـلال :**

نجيب محفوظ يسـاوى ونستون تشرشـل وفلمنج مكتشف البنسلين آخر ساعة ١٩٦٠/٦/١

(٣٧) **د. طـه حسـين :**

حياة طبيب للدكتور نجيب محفوظ .. حديث السبت الأخبار ١٩٦٥/٤/٣ .

(٣٨) **عبد التواب عبد الحى :**

الطبيب الذى منح جائزة الدولة .. ٥٨ سنة فى طب الحياة المصور ١٩٦٠/٦/٣ .

(٣٩) **عزيـزة ثـابت :**

حول نجيب محفوظ آخر ساعة ١٩٦٠/٦/١ .

(٤٠) **عـلى امـين :**

فـكرة الأخبار ١٩٦٣/٩/١٩ .

(٤١) **كمـال المـلاخ :**

بـدون عنـوان .. (حـول حيـاة طبيب) الأهرام ١٩٦٦/١٠/٤ .

(٤٢) **الـكواكب :**

مـذكرات نجيب محفوظ فى الاذاعــة
الكواكب ١٩٧٠/١/٢٧ .

(٤٣) **د. محمود اسماعيل :**

نجيب محفوظ باشــا ص ١٣ — ١٤ من
كتاب الدكتور نجيب محفوظ .

(٤٤) **د. محمود فاضل سليم :**

صديقى واستاذى نجيب محفوظ ص ٣١ — ٦١
من كتاب الدكتور نجيب محفوظ .

(٤٥) **مســعد صــادق :**

الطبيب الذى نال جـائزة الدولة للعــلوم
وطنى ١٩٦٠/٥/٢٩ .

(٤٦) **د. مصطفى بك فهمى سرور :**

نجيب محفوظ باشا كما أعرفه ص ٨ — ٩
من كتاب الدكتور نجيب محفوظ .

(٤٧) **المصــــور :**

الدكتور نجيب محفوظ ١٩٦٠/٦/٢٤ .

(٤٨) **مــوسى صــبرى :**

يوميات الأخبار .. كيف آمنت بالله
الأخبار ١٩٦٣/١١/١٥ .

(٤٩) **نكسون (البروفيسور) :**

نص المحاضرة التى اذاعها استاذ الولادة بجامعة

لندن من دار الاذاعة البريطانية فى ١٩٥٠/٥/٢٦
ص ٦٣ — ٦٦ من كتاب الدكتور نجيب محفوظ
تكريم وتقدير .

(٥٠) **وجـدى ريـاض :**

٣٠٠ سيدة تحت التجربة . هل تعمم الولادة
بالبنج ؟ رأى الدكتور نجيب محفوظ
الأهرام ١٩٦٩/١٢/٤ .

(٥١) **وطنـى :**

حياة طبيب للدكتور نجيب محفوظ
وطنى ١٩٦٣/٩/٢٢ .

(٥٢) **دكتور مهندس يوسف سميكة :**

الدكتور نجيب محفوظ طبيب أمراض النساء
والولادة دار المعـارف الطبعـة الأولى ١٩٦٣ ،
الطبعة الثانية ١٩٦٩ تكريم وتقدير .

مطبوعات خاصة فى اللغات الأجنبية

المكتب الثقافى المصرى بلندن :

Pamphlet on his book of history of medical eduaction in Egypt. 36 p. Dec. 1947 with forewad by Ahmed Hosam el Din.



كتب اخرى للمؤلف :

١ ــ الدكتور محمد كامل حسين عالما ومفكرا واديبا (الكتاب الفائز بجائزة مجمع اللغة العربية الأولى فى الأدب ، ١٩٧٨) .

٢ ــ مشرفة بين الذرة والذروة (الكتاب الفائز بجائزة الدولة التشجيعية فى أدب السير والتراجم ، سنة ١٩٨٣) .

٣ ــ احمد زكى : حياته وفكره وادبه .

٤ ــ كلمات القرآن التى لا نستعملها (دراسة تطبيقية لنظرية العينات اللفظية) .

٥ ــ يرحمهم الله : كلمات فى التأبين .

٦ ــ ما يسترو العبور المشير أحمد اسماعيل .

٧ ــ سماء العسكرية المصرية الشهيد عبد المنعم رياض .

٨ ــ من بين سطور حياتنا الأدبية .

٩ ــ الدكتور على ابراهيم يد من حديد ، ويد من حرير .

١٠ ــ الدكتور سليمان عزمى ، اول أطبائنا الباطنيين .

١١ ــ الدكتور نجيب محفوظ ، رائد أمراض النساء والتوليد .



فهـــرس

	الصفحة
اهــــداء	٣
مقدمــة المؤلف	٥
الباب الأول : حياة نجيب محفوظ	١٥
الباب الثانى : شخصية نجيب محفوظ	٥٣
الباب الثالث : نجيب محفوظ عالمـا وطبيبا	٧٣
الباب الرابع : قدرات نجيب محفوظ البيانية	٩٧
الفصل الأول : فى كتابة السيرة الذاتية	٩٨
الفصل الثانى : فى التأليف العلمى	١٠٩
الفصل الثالث : فى كتابات الدكتور نجيب محفوظ	١١٤
الباب الخامس : آثار نجيب محفوظ العلمية	١٣١
الباب السادس : ببليوجرافيــا	١٤٧
الفصل الأول : مؤلفات نجيب محفوظ	١٤٨
الفصل الثانى : كتابات عن الدكتور نجيب محفوظ	١٥٩

رقم الايداع ٨٦/٥٣٦٩
الترقيم الدولى ٢ ـ ١١٣٩ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

his time and the time of people .... how he managed to balance between what his work dictated for his time and what he devoted of time for the purpose of scientific research .... how he chose a model for himself out from the world of spiritualism.

The third chapter displays the personality of the scientist in Dr. N. Mahfouz and how such personality grew up day by day to fulfil its pioneering task in the field of Obstetrics and Gynecology. Needless to say, this Chapter includes the opinions of some of his fellows in that respect.

The fourth chapter is devoted for the abilities and talents of Dr. N. Mahfouz. In a simple way, the author tries to analyse these capabilities which were nothing but the expression and the product of a perfect scientific personality.

The fifth chapter is a brief account on the scientific treasures of Dr. N. Mahfouz and their high appraisal by the whole world. It also probes into the history of these accomplishments for which he devoted all the time sweat.

Lastly ...... the sixth chapter is the complete bibliograply of his own writtings as well as of all what was written about him.

Dr. MOHAMED EL GAWADY
Resident of Cardiology
Zagazig & Cairo University
27 Dokki St., Cairo
Tel. : 3483481

and such financial status which was translated into an European way of life. Much more greater is the fact that he was not detached from the true cornerstones of civilization of which he himself was made as well as one of their fruits too. And the proof was that highly-standard scientific inheritance which was written in very eloquent Arabic language and that included all the medical branches of his specialization.

Dr. N. Mahfouz would be able to write his book in English only, but he virtually realized the important role of the scientist towards his country and he actually played that role perfectly.

The first chapter explores the life of Dr. N. Mahfouz — may we say «as God has meant it to be» starting from 1882 and concluding with the last honouring on the day his name — along with Dr. Ali Ibrahim were granted the « Republic Necklace » in the first « Doctor Festival» 1979.

The second chapter deals with Dr. N. Mahfouz as a person. The author tries to explore as much as possible all the aspects of greatness of such a self-made personality which firmly believed in the value of the quiet hard-working though he was not so much far as monks from the lights and he was not pompous either. He was a real example for all his fellows.

Moreover, this chapter tells us a glimpse of that deep down inside peace between Dr. Mahfouz and his inner-being... between him and people .. how much perfect his personality was .. how he led a straight way of life .. how keen he was to keep up the hectic pace on his way for fame and glory ...... how always he respected

Dr. NAGIB MAHFOUZ

This book of Dr. Nagib Mahfouz the first among the obstetricians and gynaecologists in Egypt is one out of a series written by the author about those great men who were responsible for the quiet peaceful progress of this country. The series has been agreeably and appreciably received especially these books of Dr. Ali Ibrahim. Dr. Ahmed Zaki. Dr. Soliman Azmy and many others.

Dr. N. Mahfouz was a real self-made scientist. He taught himself in his own country and has come out with all the greatest experience and knowledge. He was granted such a long period of life that enabled him to accomplish a lot of the serious scientific work and enlight his remarkable career in and out his country. However doubtlessly considered a very outstanding phenomenon that had marked the great Islamic Civilization. Therefore, he has like his ancestors in the old centuries-played such a leading and outstanding role at the same time.

He was a Christian woven from within Egyptian society. His historical and true relationship With this society was a lot more deeper than that of many other individuals from those envoy classes during the latest periods of the Ottoman State.

Dr. N. Mahfouz has never been separate from this society even after attaining his international influence

Dr. NAGIB MAHFOUZ

(1882 — 1974)

Dr. MOHAMED EL GAWADY

General Egyptian Book Organization
1986